ذلكَ المسافر

قِصص قصيرة
دار بترا للطباعة والنشر والتوزيع/ دمشق
الطبعة الاولى1996

في دَائرة البَيطرة!

أنا عبد إسماعيل. أعمل مضمداً في البيطرة. وقد قررتُ أن أستقيل اعتباراً من يومِ غد ..
ولعلَّ أول سؤال يتبادر إلى ذهنكم هو: ما هي أسباب استقالة السيّد عبد إسماعيل؟ حسناً.. سأخبركم، فأنا لا أحبّ أنْ ترهقوا أذهانكم في خصوصيات مضمد حيوانات مجهول مثلي..
وباختصار أقول لكم بأنني لا أكره عملي، فأنا أحب الحيوانات مثل حبي للناس، ولو سألتم أي موظف عني في دائرة البيطرة، لأجابكم بأن المضمد السيد عبد إسماعيل ظريف وأليف كقط البيوت، مجد في عمله كالحمار، وطيب القلب وهادئ كالبقرة.
وخادم الحيوانات المطيع- أنا عبد إسماعيل كما هو مثبت في هويتي- رب عائلة كبيرة.
قد يقول البعض منكم إنني بدأت قصتي من ذيلها، وقد يقول آخرون أن لغتي هي لغة حيوان.
حسناً..! اشطبوا من أذهانكم كل ما ذكرته. سأبدأ الحكاية من أولها، فانتبهوا رجاءً...
أنا ابن فلاح بسيط، وإن أصبحت فيما بعد موظفاً بيطرياً عظيماً ترتعد منه الحيوانات فزعاً.
في صغري أحببتُ الحيوانات. وكان المرحوم أبي يتعجب لشدة تعلقي بالحيوانات.

وقد أحببتُ الكلاب بصورة خاصة، أكثر من حبي لأية حيوانات أخرى. وبرغم أنني تدرجتُ في العمر- عمري الآن ثلاثة أضعاف عمر كلب مسن- إلا أن صورة كلاب القرية لم تبرح مخيلتي: طوفان ومرجانة وأحمر وطويل وأبيض وغيرها من الكلاب المرحومة. ما زلتُ أتحسر على فراق تلك الكلاب الحبيبة، وأود من أعماق قلبي، الآن، أن أعود طفلاً امرحُ في عالم الكلاب.! وكانت هوايتي الملعونة هذه تزعج أبي، وكان يعتقد باني إنسان فاشل في كل شيء ولا أختلف عن أي كلب سائب. عاقبني أكثر من مرة، ولكنني أستمريت على سرقة الخبز من البيت لأطعم كلابي العزيزة ..
وبالرغم أن كل بيت في قريتنا كان يمتلك كلباً. إلا أن أبي رفض تربية أي كلب في بيتنا.

***

كان أبي- كما عرفتُ فيما بعد- ينتمي إلى جماعة دينية تؤمن بالحلول. قال لي مرة باستياء بالغ: "لا بدّ أن روح كلبٍ قد حلت في جسدك!".. وكان أبي بطبيعته رجلاً خجولاً قليلَ الكلام، فرفض أن يوضح لي معنى كلامه، ولكن هذه القضية ظلّت تشغل ذهني أياماً عديدة. وفي إحدى الليالي- كنت أنام في فراشٍ مشترك معه- سألته:
- يا أبي! قبل أيام قلت لي بأن روح كلب قد حلّت في جسدي.. فما معنى هذا؟
غضب أبي وقال بنفاذ صبر:
- أنت تطرح أسئلة اكبر منك!
قلت وأنا أتودد له:
- أريد أن اعرف فقط.
- عندما تكبر، سوف أقول لك.
قلتُ بإصرار:
- لا... الآن، خبرني!.
سحب نفسا عميقاً، وكمن يبيح سراً خطيراً، قرب فمه من أذني، ثم قال محذراً:
- إياكَ أن تخبر أحداً بما سأقوله لك؟
قلت بتعهد :
- أقسمُ لكَ بأنني لن أقول ذلك لأحدٍ.
اتكأ أبي على المخدةِ، ومضى يقول:
- الروح تبقى هائمة بعد الموت.. هكذا روح كل مخلوق. وعندما تأتي الفرصة المناسبة، فأن الله يحلها في جسد مخلوق آخر جديد. فروح الإنسان من الجائز أن تحل في حيوان، وروح الحيوان من الجائز أيضاً أن تحل في جسد الإنسان، كل ذلك يتم بإرادة الله. هناك ناس يحملون أرواحاً صالحة، وهناك ناس يحملون أرواحاً شريرة.. قد يعيش الإنسان فقيراً معدماً في بلد ما، ثم لا تلبث روحه أن

تحلّ في جسد ملك مثلاً في بلد آخر وزمن آخر... وربما تعود بعد زمن فتحل في جسد حيوان. حتى بين الحيوانات، إذن، هناك أرواح شريرة، وهناك أرواح صالحة..!
- وكيف نعرف حقيقة روحنا؟ من أين جاءت؟ وإلى أين تنتهي؟ ولماذا؟
- نحن لا نعرفُ. هذا سرٌ الهي.
ثم استطرد يقول:
لكننا، في بعض الأحيان، نستدل من خلال سلوك الإنسان أو الحيوان عن ماهية روحه السالفة.
واستغرق أبي في النوم، في حين ظل خيالي سارحاً في عالم الأرواح الغامض والعجيب...

***

في صباي زادت خبرتي بعالم الكلاب: تعلمتُ منها الكثير، وشرعتُ أفسر سلوكها وفق أفكار أبي. للكلب، مثلما للإنسان، شخصية. هذا كلب متكبر، معتد بنفسه، فربما كان فيما مضى إمبراطوراً... وهذا كلب ذليل، ربما حلّت فيه روح شحاذ. وبين الكلاب المخلص والجاحد، الأناني والمتسامحُ، الشجاع والجبان، الذكي والغبي، بل فيها من يكره أبناء جلدته، كذلك الطاغية الذي أحرق مدينتهُ. فعالم الكلاب عالم عجيب كعالم البشر أنفسهم.
ومن هذا المنطلق كان عليَّ أن أعامل كل كلب على ضوء شخصيته وسلوكه..!
وتعلمتُ كيف أقلد نباح أي كلبٍ كان، وعرفت أن الكلاب تطلق في حالة نباحاً مختلفاً..
كنت أجمع كلاب القرية فتتبعني كقطيع إلى بساتين الزيتون أحياناً أو إلى الجبل الكائن شمال القرية في أحايين أخرى. وهناك كنتُ ألهو مع الكلاب بكل سرور: أضحك. أغضب. أشاكس. أتسامح . انتصر. أنهزم.. وكنت لا أعود إلى البيت إلاّ في ساعة متأخرة من النهار، فأتلقى عندئذٍ على مضض شتائم أبي المقذعة:
- ابن الكلبة! الم أقل لك بأن روحك هي روح كلب؟.. متى تترك هذه العادة السيئة؟.
ولكن حب الكلاب تغلغل في نفسي، ولم يعد بإمكاني ترك هذه الهواية الملعونة.

***

والآن، عندما أعود بذاكرتي إلى الماضي، أجد بأن ذكريات تلك الأيام ما تزال ماثلة في خيالي..
ذات مرة حبسني أبي إلى جانب الحمار، قضيتُ ليلة كاملة في الإصطبل مقيّد الرجلين والحمار حُر..!
وحينما كبرتُ حاكمت نفسي بنفسي. لم يكن أبي خاطئاً، سامحه الله و أطاب مثواه.. فلقد بلغت بي الحماقة- الحماقة التي اكتسبتها من الكلاب طبعاً- أن جعلت

من عمي أضحوكة. كان يمشي بزهوٍ وفخذ لحم يتدلى من يده، مشيتُ خلفه، اقتربت منه واقتربتُ. وبغتةً أطلقت نباحاً سريعاً:" عو..عاو.عو!" قفز بخفة إلى الأمام وهو يطوّح باللحم على الأرض. وعندما استدار وجدني أبتسمُ ببرود، عصف به الغضب، وانكب على الأرض ليلتقط حجراً، وهو يقول بصوت حانق: " كلب ابن الكلب!"... ولكنني أثناء ذلك كنت قد أطلقتُ ساقي للريح متوجهاً نحو بساتين الزيتون الكثيفة.

ولم يكتفِ عمي بعقاب أبي لي. فبعد أيام، وقعتُ في كمين نصبه لي. ربطني إلى جذع شجرة زيتون ومضى.

وفي ليالي الشتاء المعتمة، كنت اعوي كالذئب، فتهتاج كلاب القرية، ويتأهب الرجال حاملين بنادقهم.

وكان لنا جار سكير، عصبي المزاج، لا يطيق سماع أي صوت كان. تصوروا أنه تشاجر مع جدتي مرة لأن صوت صر صرٍ في بيتنا كان يقلق راحته!

وانتهزتها فرصة لأنتقم منه.

بعد أيام قفزتُ إلى سطح منزلهم، واختبأت بين الأغطية. كان يجلسُ في نهاية السطح وأمامه(ربع عرق). وفي اللحظة التي بدأ يدني القنينة من شفتيه، صحتُ بصوت حاد يثقب الآذان: "عاو!". وضع القنينة على الأرض، وتطلع حواليه باحثاً عن مصدر النباح. وكلما كان يدني الزجاجة من فمه كنت أطلق نباحاً:"عو! عاو!".. وأخيراً فقد السيطرة على أعصابه تماماً، فنهض بهياجٍ، وأطلّ على بيت جار آخر وهو يناديهم:

ـ يا هؤلاء: ألا تستطيعون أن تؤدبوا كلبكم؟؟..

وسمعت الجيران يقولون:

ـ ما بك يا هذا؟.. لقد مات كلبنا منذ أسبوع!.

اسقط في يده. عاد إلى مكانه وهو في غاية الارتباك. وهنا أخرجتُ رأسي من بين الأغطية.

رفع الزجاجة إلى فمه، فشرعت انبح بصوت متواصل:" عو.. عاو..عو..عاو!" نظر نحوي بوجه حانقٍ وقد اخرس الغضب لسانه، مددت رقبتي نحوهُ وصحتُ " عو!" عضَّ على أصبعه من شدة الغيظ، وحملق في وجهي بعينين محمرتين وهو يصرخُ: " أنا الآن أشرب، فانتظر إلى الغد يا خنزير!..." وتعجبتُ لأنه لم يتحرك من مكانه.

ورغم عصبيته المفرطة كان إنساناً مرحاًوطيباً.. وفي اليوم الثاني تجاهل الموضوع تماماً.

وكثرت مناكداتي للناس، وكثرت الشكاوى ضدي. واحتار أبي في أمري.

وكان هو ضحيتي الأخيرة..! لن أقول لكم ما حدث. سامحوني! فليس من الإنصاف أن أتحدث عن أبي وهو في مثواه الأخير. وكل ما أستطيع أن أقوله لكم أن أبي لم

يغضب على خلاف عادته في كل مرة، بل تفرس ملياً في وجهي- وربما كان يتمعن في الزغب الذي علا شفتي- وقال بصوت يائس:
-أنت حيوان، وستظل حيواناً .. أنت لا تصلح إلا للعيش مع الحيوانات. هل فهمت قصدي؟!..

***

وفي الصف الأول متوسط انقطعت عن الدراسة. ولا يعني هذا بان ذكائي قاصر.
وبعد فترة دخلت دورة للتضميد البيطري، ثم انتقلت لأعيش في المدينة كالأفندي صاحب قريتنا.
وهكذا صدقت نبوءة أبي، وتحققت آمالي: سوف أمضي عمري كله مع الحيوانات!.
في البدء ظننتُ أن هذه الدائرة إنما وجدت للعناية بالحيوانات، تماماً مثلما تعنى المستشفيات بالإنسان، ولكن سرعان ما اتضح لي بان عالم الحيوان هو غير عالم الإنسان، الحيوان هنا يقتل- بدون رحمة- في كثير من الحالات.. يُقتل إما لوقاية الإنسان من نفس المرض، أو كقربان للمحافظة على أبناء جنسه من الوباء.
والكلاب السائبة، من وجهة نظر البيطرة- كانت أكره الحيوانات لأنها سبب الأكياس المائية.
أما كلاب الذوات، الكلاب التي تعيش في بحبوحة داخل قصور فخمة، فكانت هي المدللة في دائرتنا.
مجتمع الكلاب، إذن، هو الآخر مكوّن من طبقات:- تعساء ومحظوظين.. فيا للمهزلة!. وقلتُ لنفسي معزياً: " أغمض عينيك يا عبد إسماعيل..! أنت الآن موظف، أنت الآن رجل بالغ ورب عائلة.. أنت لم تعد صبياً طائشاً متمرداً لا تفكر إلاّ بالكلاب. العمل هنا في هذه الدائرة يتيح لك فرصة للتعرف على طبائع حيوانات أخرى.. غنّ مثل الحمار، ارقص مثل الجمل، ارفس مثل البغل، كل من الطعام بقدر ما تأكل جاموسة، ولن تجد من يحاسبك على ذلك... اعتبر نفسك عدواً للكلاب، كن عاقلاً. اخضع لواقعك يا عبد إسماعيل!".
ولكن عبد إسماعيل الصبي، العنيد، المشاكس كان من حين لآخر يصرخ في أعماقي:" الكلاب حيوانات وفية.. الكلاب أوفى من كثير من البشر!".
آه... يا أصدقائي القدامى!
لقد مضت أعوام وأعوام وأنا اعمل في دائرة من المفروض بها أن تعتني بكم...
ولكن الأمور تجري بالعكس..
ثمة كارثة ستحل بكم. يؤسفني أن أقول إنهم جعلوا من صديقكم الوفي- عبد إسماعيل- عدوا لكم.
أمامي الآن كتاب رسمي يقضي بقتلكم جميعاً.

***

صورة الكتاب:
" بالنظر إلى أن الكلاب السائبة تلحق الأذى بالناس وتقلق راحتهم وتسبب لهم الكثير من الأمراض كداء الكلب والأكياس المائية والديدان وغيرها، وبالنظر إلى أنها تشوّه منظر المدينة لذلك قررنا تشكيل لجنة مشتركة من قبل طبابة صحة المدينة ودائرة البيطرة ومديرية الشرطة ومديرية البلدية لشن حملة على الكلاب السائبة وإبادتها رجاءً".
نحن الآن في دائرة البيطرة، نعدّ لكم جرعات مميتة. ندس السم في الدسم. السيانيد؟!.. والشرطة يهيؤن عشرات الخراطيش وسيارات البلدية متأهبة. وستشرف طبابة صحة المدينة على حرق جثثكم. وقد اختاروني أنا، صديقكم القديم عبد إسماعيل، عضواً في اللجنة المذكورة. سامحوني! باعتباري موظفاً في الدولة فيجب أن أؤدي مهمتي بجد وإخلاص.
والشجاع منكم من ينجو بجلده..

***

تطلعت إلى وجهه الجامد.. وجهه ليس بغريب عني.. أين رأيت هذا الرجل؟ وتذكرتُ: إنه خادم الأفندي صاحب قريتنا.
كان بصحبته كلب، طلب مني أن افحصه. وبرغم انه كان من فصيلة أجنبية نادرة إلاّ أن منظره لم يعجبني. وقلت في سري: " لا بدَّ وأن روح كونت أوربي عجوز قد حلت جسده!". ظل الكلب المتعجرف هادئاً بين يدي أثناء الفحص، يتأملني بغطرسة جنرال أمريكي، واتضح لي بأن الكلب مصاب بالجرب، وتكونت لدي شكوك في احتمال إصابته بالأكياس المائية، قلت للخادم:" الكلب هرم، ومصاب بأكثر من مرض، أفلا يستطيع الأفندي أن يستغني عنه؟". حملق الخادم في وجهي ببلادة وهو يتمتمُ: " سيدي يطلب معالجته". قلت في سري: " حسناً..! ليذهب سيدك الأفندي وكلبه الأجرب إلى الجحيم!".. وحين كنت أهيئ حقنة الدواء، هجم الكلب علي فجأة، نهش فخذي ثم لاذ بالفرار إلى الخارج..
..وكان لا بد من العلاج، فمن يقول بأن كلب الأفندي ذاك ليس مسعوراً؟.

***

من الدائرة إلى المستشفى، ومن المستشفى إلى البيت، والعلاج يجب أن يستمر أسبوعاً.
وانتشر الخبر بين الزملاء في الدائرة. كلب مسعور نهش عبد إسماعيل في فخذه.. وهذه فرصة ثمينة للمداعبة يا سادة:" أليس من الجائز أن يسري الداء الخبيث في دمك يا عبد إسماعيل؟" .

هذا جائز جدا . تندروا. امزحوا. اضحكوا.. وبعد أيام قد ينقلب عبد إسماعيل الإنسان إلى كلب مسعور.. حتى أنت يا مدير دائرتنا الوقور؟! ما معنى ابتسامتك هذه وأنت تنظر إلي بهدوء وصمت؟. لا.. لا.. انتم واهمون.. الطب يصنع المعجزات ومن المحال أن يسري الداء الخبيث في جسدي.. انتظروا.. انتظروا.. وبعد اليوم العاشر أحكموا عليَّ!.
ولكن اليوم العاشر لم يأتِ أبدا .. لا أعرف كيف هبَّ في أعماقي عبد إسماعيل الصغير.. في اليوم السابع، بالضبط، هبَّ وهو يحثني بإلحاح: "هذه فرصتك يا عبد إسماعيل.. إنها فرصة جميلة فلا تدعها تفلتُ!!".
كان في نداءه قوة سحرية لا تقاوَم، فدلفت إلى غرفة المدير، واختبأت تحت الأريكة.
المدير الآن يدخل الغرفة. اعرفه من وقع أقدامه. إنه الآن يجلس خلف المنضدة بوقار وكبرياءٍ.. وعندها هتف بي عبد إسماعيل الصغير:" حانت فرصتك أيها الكلب الكبير!". ومن تحت الأريكة أطلقت صوت كلب غاضبٍ:
- مررر...مررر ...عاو!
ونجحت اللعبة. المدير يندفع خارجاً من الغرفة بذعرٍ وكأن كلباً متوحشاً يلاحقهُ. سمعته ينادي البواب بخجلٍ وارتباك: " علي.. علي.. في الغرفة كل...ب.. كلب.. كيف دخل إليها؟".. انكمشت على نفسي تحت الأريكة. علي يدخل، يجيل بأنظاره في جميع الأركان. يخرج. اسمعه يقول بهدوء: " ليس في الغرفة أي كلب يا أستاذ!".. ويعود المدير بحذر هذه المرة يجلس في مكانه، يدخل علي أيضاً.. ثم يفاجأ الاثنان بنباح مرعب: " عَو!عَو!عَو!". يهرب عليّ وفي أثره المدير.
اسمع لغط ووقع أقدام وتجمهر عند الباب، يتطوع الآن بواب شاب وشجاع . أرى العصا بمحاذاة ساقه. وقبل أن ينكب أباغته بنباح مجلجل: " مرر..عو!" يخرج هو الآخر خائباً مصفر الوجه، ويزداد اللغطُ، إنهم يتشاورون. الكلب قد يكون مسعوراً، فلا بد من خطة لإخراجه، المدير يقول: " هيا يا محمود: لا نريد منك أن تخرجه.. فقط القي نظرة عليه.. تأكد إن كان مسعوراً أم لا؟" يدخل محمود. ينحني من بعيد. يمد رقبته بتوجس ثم يمتقع وجهه كمن صعقه تيار كهربائي. لن أدع له مجالاً للتفكير. لا بدَّ من إكمال اللعبة. ويكفهر وجهي، وككلب كوجري* شرس انبح في وجهه: " حو..حاو..حو!"، فيقفز هو الآخر هارباً، ويخبرهم بذهول عما رآه، ويخيم الصمت عليهم للحظاتٍ، ثم يعلو اللغط من جديد: " لقد أصيب بداء الكلب!". " لا تدعوه يخرج فسينهش لحمنا!" "اتصلوا بالإسعاف" " أغلقوا الباب!". " إنه مجنون وقد يكسر الباب". " تسلحوا بالعصي.. وهاتوا الحبال لنربطه إذا حاول الهجوم!"." ليس هناك أخبث من هذا الداء!"." انتبهوا!".. واخرج رأسي من تحت الأريكة. أراهم ينظرون إليّ من الشباك بنفورٍ كأنهم

يواجهون وحشاً أسطورياً. قلت لنفسي: "لقد وقعت في الفخ، يا عبد إسماعيل، وعليك لن تنهي اللعبة!".
خرجتُ من تحت الأريكة. اتجهتُ نحوى الشباك. إلاّ أنهم ارتدوا خطوات إلى الخلف.
قلت لهم:
ـ كنتُ أمزحُ
ردّ المدير قائلاً:
ـ كل المجانين يدعون بأنهم عقلاء!
قلتُ بإصرار:
ـ ألا تصدقون بأنني معافى سليم؟
أجاب احدهم باستهانة:
ـ لا.. أنت الآن مجنون!
قلت بتوسل:
ـ ولكنكم بيطريون وتعرفون أعراض المرض؟
ـ نحن أخصائيون في أمراض الحيوانات فقط!
ـ اعتبروني حيواناً!!
ـ أنت إنسان مجنون.
ـ القوا ما في أيديكم من عصي.. وارموا الحبال بعيداً، وسأخرج طائعاً كالنعجة.
ـ أنت خطر على سلامتنا!
ـ ماذا دهاكم؟ أليس بينكم فرد عاقل؟ افتحوا الباب أرجوكم.. لقد كنت أمزحُ!
وخيم عليهم صمت قاتل.

***

طرق مسمعي صوت سيارة الإسعاف وهي تعوي من بعيد ككلب متوجع. وكلما كان الصوت يقتربُ، كلما كان يزداد صداهُ في أذني.. وقلت لنفسي: " جاء دورك يا عبد إسماعيل لتدفع ثمن عبثك..!" وبعد ثوان قليلة كانت السيارة قد وصلت الدائرة. فتحوا أبوابها الخلفية، وأخرجوا سدّية. وقف الجميع في صفين متوازيين، رافعين العصي في الهواء متأهبين للانقضاض عليّ. مشيتُ في الوسط بكل هدوء. مشيتُ بينهم بذل وعظمة ملك مخلوع يغادر ارض وطنه، كان صوت أبي يرن في أذني: " روحك هي روح كلب!" صعدت إلى السيارة، وهم يتأملونني كمن يتأمل حيوان غريباً. وحين همت السيارة بالانطلاق، أخرجت رأسي من النافذة، وبكل ما لديّ من خبرة في تقليد نباح الكلاب صحت في وجوههم باشمئزاز :
عَو!

***

في نفس اليوم، بعد خروجي من المستشفى، قررتُ أنْ أستقيل، وقد يبدو سبب استقالتي سخيفاً.

---

*

الكوجر: قبائل كردية مرتحلة تشتهر بتربية كلاب ضخمة وشرسة.

الاحتجاج

حدجه الموظف بنظرة استخفاف، ثم انكبَّ على الأوراق وهو يقول بلا مبالاة:
ـ ليس لدينا درجات شاغرة الآن، وسوف ننظر في أمر إعادتك للخدمة في السنة المقبلة.
بهذه البساطة حسموا الموضوع معه. وفي وقت متأخر جداً خرج من الوزارة وقلبه مثقل بالحنق والحزن والأسف، منذ عشرين يوماً وهو يتنقل من دائرة إلى دائرة:المجلس العسكري العرفي المنحل. التحريات الجنائية. التجنيد. التقاعد. الادعاء العام. التربية. المستشفى. أنهكوه في سبيل إنجاز المعاملة، وإذا بذلك الفرد الجالس خلف المنضدة يطرده بدون اكتراث.
وعندما خرج إلى الشارع، لفحت وجهه حرارة الظهيرة. فكر في العودة إلى قريته، ولكن سرعان ما عدل عن رأيه، إذ تذكر أن المبلغ الذي تبقى لديه لا يغطي نفقات رجوعه.. وامتدت يده إلى جيبه لتحصي ما فيه من نقود. ماذا؟ دينار ونصف؟ أهذا هو كل ما تبقى لديه؟ . لقد نفذ المبلغ الذي إستدانه هدراً في هذه المرة أيضاً. لماذا يورطون الناس؟ أجل. لماذا استدعوه إلى بغداد- مثلما استدعوا آخرين- ثم تراجعوا أخيراً دون أن يعيروهم أي اهتمام؟..
ـ تفوا!!
بصق في الهواء بحنق، ثم علت وجهه مسحة من الغضب الدفين. نظر حواليه بخجل، واطمأن حين أدرك أن أحداً لم يره. الحر في بغداد لا يُحتمل. الشارع قد أقفر من المارة والسيارات. الناس يفرون إلى بيوتهم. إنهم الآن ينعمون بالراحة. أما هو فأين يذهب؟ مفلس ومطارد ومفصول. جسمه يكاد يتهالك على الأرض من فرط الإعياء. أيعود إلى الفندق؟ كلا..! غرفه قذرة وضيّقة وخانقة. أي صدف سيئة ساقته إلى ذلك الفندق الحقير؟ (فندق السعداء). هكذا أسماه صاحبه. فيا للمهزلة!... صاحبه الملعون يعرف مع من يتعامل، فأكثر النزلاء هم من المشردين والأفاقين والعاطلين. وقبل أيام، حين ساقته الصدف إلى هذا الفندق، تأمله صاحبه بنظرة خبيرة، ثم لم يلبث أن ابتسم في وجهه ابتسامة قواد، وقال يوجه توصياته للخادم:
خذ الأستاذ إلى الغرفة رقم 18 وأبدل له الشراشف والبطانيات. وحين قاده الخادم في ممرات الفندق الضيقة والرطبة، أدرك بأنه قد تورط في النزول به، وانتابه إحساس غامض بأنه قد أصبح واحداً من نزلائه الضائعين. وطيلة أيام بقائه فيه، ظلَّ يفكر في الانتقال إلى فندق آخر. ولكن لم يكن يملك المبلغ الذي يؤهله للنزول حتى في الفنادق المتوسطة. ها هي نقوده تنفذ. نفذت نقوده وهو ما يزال مديناً لصاحب الفندق بأجور عشرة أيام . كيف سيكون موقف صاحب الفندق لو عرف بأنه مفلس فعلاً؟ وكيف يمكنه الخروج من المأزق؟؟.. لا بدّ من أن يقصد أحد

أصدقائه ليقترض منه. واستعرض في ذهنه صور بعض الأصدقاء الذين يمكن أن ينجدوه.
كان الحر قد اشتدَّ إلى درجة لا تُحتمل. وأزعجه لزوجة جوربيه المتعرقين. اسند جسده المنهك إلى عمود مظلة توقف الباص. اعتمد في وقفته على رجله اليسرى. وأحس بقطرات من العرق تنساب تحت إبطيه. امتدت يده إلى جيبه لتحصي من جديد المبلغ المتبقي لديه- توقف بالقرب منه صبي صغير، وقال بتوسل:"تصبخ؟" فهزَّ رأسه بالنفي. وحين انصرف الصبي، امتلأ قلبه حزناً وقال في نفسه: لماذا يتجرع الأبناء مرارة أخطاء الآباء؟.
وما لبث أن استند على رجله اليمنى في محاولة لإراحة اليسرى. أغمض عينيه نصف إغماضه. متعب. ما أحوجه إلى فترة من الراحة.. لحظات قصيرة من النوم قد تعيد إلى نفسه الهدوء. ولكن أين يذهب؟ الفندق قذر وغير مبرد، ووجوده فيه يزيد آلامه، والأصدقاء- باستثناء قلة منهم- يتحاشونه، ولهم العذر. إنها مسألة رزق. الناس يتفاوتون في موضوع استعدادهم للتضحية.. ولقاؤه معهم يجلب عليهم الويلات فعلا، فاسمه في السجلات الرسمية مدرج بين العناصر الخطرة جداً..!
عضَّ على شفتيه بغضب، وقال لنفسه: " ليتهم يعرفون من هم الخطرين على سلامة الوطن".
قفزت إلى ذهنه فكرة. لماذا لا يعود إلى الفندق ويبلغ صاحبه بحقيقة إفلاسه؟. لن يستطيع أن يفعل به أي شيء. المفلس في القافلة أمين- قد يبتسم في وجهه ذات الابتسامة الداعرة، ويطلب منه باستهزاء تسديد المبلغ فيما بعد. وقد يثور ويغضب، ويهدده باستدعاء الشرطة، أو قد يعمد إلى حجز أمتعته التافهة.. وعندئذ فقط سيقدم له الساعة، والخاتم ، وقلم البار كر، ويطلب منه عرضها في المزاد العلني بين نزلاء الفندق، فإذا رفض فسيودعه خلسة على الطريقة البرجوازية.
انتبه إلى انه قد استسلم لأحلامه، فقرر أن يتصل مساءً بصديق معين ليحل له مشكلته.
لكن أين يقضي وقته إلى حين أن يحل المساء؟ الوقت ثمين، لكنه ليس كذلك بالنسبة لمفصول مثله. خطر له أن يذهب إلى السينما. قد يكون الفيلم تافهاً لكن الصالة ستكون مبردة.. الفيلم لا يهمه كثيراً، كل ما يهمه هو أن يحل المساء، سيحزم أمتعته ويغادر بغداد عائداً إلى قريته. الصغار ينتظرونه الآن بلهفة. في هذه المرة سيعود إليهم بلا هدايا، فبماذا يتذرع؟
أحس بالدموع تطفر إلى عينيه، فاضطرمت في أعماقه موجة من السخط الدفين.
كان بعض الموظفين قد بدؤوا يغادرون الوزارة، وكره، وكره أن يلتقي بذلك القرد الذي طرده قبل لحظات، فمضى مبتعداً ليتحاشى اللقاء به. أين يذهب؟ وأي سينما يقصد؟.. حفلة العصر لن تبدأ إلاّ بعد ساعة، وجسده يكاد يتهالك على الأرض من شدة التعب. جائع. لمَ لا يتناول وجبة رخيصة في احد المطاعم الصغيرة؟

واصل سيره دون أن ينتبه إلى رجل بدأ يتعقبه عن كثب.
أمام بوابة عمارة تباطأ في مشيه. هبّت من الداخل نسمة باردة منعشة. أصغى إلى الراديو يذيع نشرة الأخبار من محل قريب. لا شيء جديد. الصهاينة يرفضون الانسحاب. والدول العربية تناقش أكثر مما تعمل.. وعلى مسافة غير بعيدة لمح أعمى يتسول وهو يرتل الآيات القرآنية:(كنتم خير امة أخرجت للناس). نظر إلى وجه الأعمى المجدور، تأمل حفرة عينيه المغلقتين، أحس باشمئزاز فظيع، اندلعت في أعماقه موجة عارمة من الغضب.. نسي همومه الشخصية، ومضى وهو يفكر في أمور أخرى.
بدت الأرصفة خالية من الناس في قيظ الصيف اللاهب، وكأن المدينة تغط في نوم عميق. وعندما عبر الرصيف الآخر، شعر بالرجل الذي بدأ يتعقبه. نظر إليه بزاوية عينه، الملابس تنتفخ على عجيزته في موضع المسدس بالضبط، الوجه عابس، والرجل يتظاهر بعدم الاكتراث برغم يقظته الشديدة. لكنه يعرف كيف يفلت من شباكهم في الوقت المناسب!
شرع يسير على مهل. الرجل يتعقبه كظله. مشكلة جديدة. كيف يتخلص منه؟
لحق به، وقال بلهجة مؤدبة:
ـ أتسمح لي بهويتك؟
حملق في وجهه ، وقال باستياء:
ـ هاك.. هذه هويتي!
ألقى عليها نظرة خاطفة ثم أعادها إليه وهو يعتذر له.
وقفل عائداً، في حين عرج هو إلى أول مطعم صادفه..
حين دخل صالة السينما، لم يكن فيها أي متفرج غيره. كان ذهنه ما يزال مشغولاً بالرجل الذي لاحقه. لماذا تتبعه؟ أبحكم الواجب؟ مهزلة..!
ودلف إلى الصالة بضعة شبان اتجهوا نحو الزاوية. صدحت الموسيقى فجأة.. أغنية ثائرة.. صوت فيروز يردد بانفعال وحماس:"الآن.. الآن العودة وليس غداً" حزيران كان كابوساً ثقيلاً، يوم كانت تدور المعارك، كان هو في سجن نقرة السلمان الصحراوي.
طرق سمعه صوت بائع المرطبات ينادي: " بارد. سفن. كولا. أورنج!".
أحسَّ بالانتعاش بعد أن تناول المرطب. نزع حذاءه، فتح أزرار قميصه. وجد نفسه في وضع مريح تماماً أغمض عينيه، ومن جديد بدأت فكرة الحصول على نقود تقلقه. ماذا يفعل إذا لم يعثر على من يقرضه مبلغاً؟.. استعرض في ذهنه صور أصدقائه في بغداد.. وشيئاً فشيئاً أخذ النعاس يسيطر عليه. متعب. هاهي فيروز تتوقف عن الإنشاد. والأغنية الآن لأم كلثوم. ابتدأت من الوسط: " اعطني حريتي، أطلق يديَّ". ما أسم الأغنية؟ ما أسمها؟!.

واستسلم للنعاس قبل أن يتذكر اسم الأغنية. ثمّ أفاق بعد لحظات على أثر ضجّة. فتح عينيه.. حسناً! لقد ابتدأ العرض.. أدار أنظاره في أرجاء الصالة، ثمة عدد من الشبان يتناثرون في الصالة. كانت مقدمة فيلم الأسبوع المقبل عن فيلم من أفلام رعاة البقر، شيء ممل يثير الضجر والغثيان، نفس الحكاية.. البيض يهاجمون الهنود الحمر، يبيدونهم باسم الحضارة.العار لكل حضارة تمتهن كرامة الإنسان!.
وغالبه النعاس مرة أخرى، فالمقدمة التافهة لم تثره.
وأجفل على صرخة استغاثة تقطع نياط القلب. كان المشهد يمثل أقبية تعذيب: جماعة من العسكريين يحاولون استنطاق رجل أصلع متين البنيان. الفيلم إذن من أفلام الكفاح؟؟ وملامح المتهم تدل على انه مناضل جريء؟ ولكن.. ما أسم الفيلم؟ وأين تدور أحداثه؟ آه .. اللعنة كان ذهنه مشغولاً فلم يقرأ عنوانه عند دخوله السينما.
شرع يلبس حذاءه، ويغلق فتحة قميصه ثم اعتدل في جلسته ليتابع أحداث الفيلم.
لا بدّ وأن يكون الفيلم عن الجزائر..
الممثلون خليط من العرب والأجانب. والمشهد يمثل إعدام مواطن، ومن أعماق زنزانته الرهيبة يهتف بصوت مجلجل: " أموت و تحيا الجزائر" وتستمر الثورة تقدم الشهداء، ويحقق الثوار النصر تلو النصر، يمرغون سمعة الاستعمار في الوحل، ويرتفع علم الجزائر مرفوعاً في سماء صافية زرقاء.
عندما انتهى العرض، صفق للثورة، وصفق آخرون، ثم غادر السينما وهو ممتلئ بالرضا والفرح رغم محنته.
كان الشارع ما يزال مقفراً، عجباً، لا سيارات، ولا سابلة، ولا حوانيت مفتوحة؟ وثمة مدنيين يحملون العصي بأيديهم، ويتنقلون من مكان لآخر في قلق وارتباك، صراخ وضوضاء، ماذا يحدث؟.. طفر إلى عرض الشارع، غير بعيد منه كانت كتلة بشرية تملأ الشارع، مظاهرة؟!.. اقشعر جسده للمفاجأة، هاهي براكين الحقد تلتهب في وجوه الطغاة، تذكر أيام السجن والجوع والحرمان، فانفجرت في أعماقه ثورة مدمرة من الغضب، اندفع يعدو باتجاه المتظاهرين طرق سمعه صوت يأمره بالتوقف، ولكنه استمر في اندفاعه، ومن بناية مجاورة انهمر عليه الرصاص، فسقط مضرجاً بدمائه، ودوى صوته عالياً وهو يهتف:
ـ عاش الشعب!
ردّ صوت يقول في الميكرفون:
-ننذركم بالتفرق حالاً.
فاهتز الشارع لدوي آلاف الحناجر:
ـ يسقط الاستعمار وأعوانه.
واستمرت المظاهرة تتقدم بثقة واعتداد. عوت بضع أطلاقات أخرى فوق رؤوس المتظاهرين. سرى الهياج في نفوس الجماهير المحتشدة وكدوّامة كبيرة في بحر

هائج استمرت الكتلة البشرية تتقدم. كان هو ما يزال منكبحاً على وجهه في عرض الشارع ودماؤه تنزف، أخذت المظاهرة تقترب منه، حملته عشرات الأذرع عالياً، واهتز الشارع مجدداً لآلاف الحناجر وهي تهتف بصوت واحد مدوي:
ـ المجد للشهداء!

كوخ على نهر الكومل*

حين حلّ الليل بدأنا- أنا وخالد- نواصل السير وسط غابات البلوط الداكنة، الممتدة إلى الجنوب من جبل (كَارا) . ظل دويُّ الرصاص يطرق آذاننا بين فترة وأخرى .. وفي اللحظات التي كان فيها صوت الرصاص ينقطع، كانت الضفادع تعاود النقيق في مخابئها بين حقول الرز والتبغ. وحين شرعنا بالهبوط مع اتجاه الدرب إلى أسفل الوادي، أخذ خرير المياه المتدفقة بين الصخور الجبلية يطغي على نعيق الضفادع، لم نتوقف عن السير لحظة واحدة، فقد كنا نحمل رسالة خاصة إلى جماعتنا في سهول (الشيخان). وكانت التعليمات تقضي بأن نصل بأسرع وقت ممكن.

ومع ذلك، ضللنا طريقنا عند منتصف الليل، حين أفل القمر، وهكذا أضعنا فترة ثمينة من الوقت. وحين بلغنا قمة جبل (أتروش) بدأت تباشير الصباح تلوح فوق القمم الشرقية البعيدة.

ما يزال بيننا وبين نهر الكومل مسافة طويلة- كنا في غاية الإنهاك. خطر لنا أن نستريح قليلاً قرب عين ماء على مقربة من القصبة، إلاّ أن التعليمات كانت تقضي بعدم التوقف إلاّ بعد عبور النهر... في تلك المنطقة المحفوفة بالمخاطر، كان علينا أن نتجنب الوقوع في الكمائن، ولذلك تركنا الطريق، وتوغلنا في غابة صنوبر كثيفة. كان نسيم الصباح المعطر بأريج الصنوبر منعشاً، فدبَّ فينا النشاط من جديد. وعندما غادرنا الغابة، وبدأنا نهبط سفح الجبل، لاحَ لنا نهر الكومل متعرجاً في أسفل الوادي كأنه ثعبان.

... قررنا أن نعبر النهر من مكان ما قريب من قرية (دزي) المهجورة، حيث المياه ضحلة.

كنا نعرف تماماً أننا نجتاز أخطر منطقة. من المؤكد أنهم يراقبون جميع المعابر من موضع ما فوق قمة (أتروش) إلا أننا كنا نعلم أن قواتنا كانت تحتل القمم المواجهة لهم مباشرة... وبالفعل بدءوا يقصفون المعبر قبل أن نباشر بالعبور. في البدء إلتمع فوق القمة بريق أحمر، أعقبه على الفور فحيح مرعب، ملأ جوّ الوادي. وكان علينا أن نحتمي بسرعة، فاندفعتُ أركض باتجاه الأحراش، إلاّ أني سقطتُ حين زلت قدمي، وفي ذات اللحظة استطاع خالد أن يختفي خلف صخرة كبيرة إلى جانب شجرة صفصاف.. وحين انفجرت القذيفة على مقربة منا، صاح خالد من خلال سحب الدخان:

ـ هل أنت بخير؟.

وقبل أن أهمّ بالزحف نحوه، إلتمع فوق القمة وميض احمر مرة أخرى. هاهي قذيفة أخرى في طريقها إلينا. قفزت نحو الأدغال، واختبأت بين شجيرات الدفلى، في حين ظل خالد في مكمنه، أخذت القنبلة تعوي فوق رؤوسنا فترة قصيرة، ثم مضى صوتها بعيداً، وأخيراً انفجرت فوق قمة (اتروش) مثيرة زوبعة من الدخان.

صاح خالد بفرح:

ـ إن قواتنا تقصفُ مواضعهم!.

وعربدت في الجو قذيفة أخرى، لكننا لم نتبين أين سقطت. اندفعنا نعبر النهر بسرعة. كانت أقدامنا تنزلق فوق الصخور الملساء في قاع النهر. ابتلت ملابسنا حتى الحزام. وحين بلغنا الضفة الأخرى للنهر، سقطت قريباً منا قذيفة أخرى، لكنها لم تنفجر. اندفعنا نركض في أرض مكشوفة باتجاه القرية المهجورة، وتعرضنا إلى رشقة رصاص، تطايرت الأتربة تحت أقدامنا. اعترضت طريقنا ساقية ماء متروكة، فالقينا بأنفسنا فيها. لقد بدءوا يتبعوننا إذن، وأطلقنا بضع عيارات نارية باتجاههم، في محاولة لتحديد مواقعهم، إ لاّ أنهم لم يردوا على نيراننا. كان خالد منبطحاً على السدة الترابية حين وقع نظري على بقعة حمراء فوق سرواله. صرخت:

ـ أنت جريح!

لكنه لم يلتفت إليَّ، واستمر على وضعه، يراقب السفح المقابل بحذر شديد، وعدت أصرخ:

ـ خالد.. انتبه..أنت جريح!

أجابني ببرود:

ـ اعرف ذلك، فلا تهتم.

ثم هتف بفرح وهو يضغط على الزناد:

ـ انظر! هاهو أحدهم يتحرك، لكنه بعيد.

وأطلقنا بضع عيارات نارية باتجاهه. اختفى خلف جرف صخري، ثم شرع هو الآخر يطلق النيران باتجاهنا.

وحين انقطع صوت الرصاص، قال خالد بأسف:

ـ يبدو أنهم قد انسحبوا!!

كانت الشمس آنذاك قد أشرقت. ولاحت لنا أوراق الأشجار الذهبية سابحة في ضوئها الفضي.

قال خالد:

ـ لقد تأخرنا كثيراً.

وألقى نظرة على بقعة الدم المنتشرة فوق سرواله، ثم تمتم بمرارة:

ـ إنهم يدفعون الأمور في غير صالح قضيتهم.

وقبل أن نغادر موضعنا، مرقت من فوق رؤوسنا قذيفة تئز بغضب، أعقبتها على الفور قذيفة أخرى. ثمَّ توالت القذائف كالمطر. كان صدى الإنفجارات المتوالية يتردد في شعاب الوديان بفظاعة رهيبة. ظلّت الطيور تحلّق فوق رؤوس الأشجار هائمة مذعورة. وكانت تلوح لنا سحب الدخان على السفوح المواجهة كأنها أعمدة أسطورية. كان خالد يتابع موضع سقوط القذائف بمنظاره. وقال بانتصار وهو يناولني المنظار:

ـ أنظر أنهم يفرون. لقد أحالوا الأرض جحيماً تحت أقدامهم. ورأيتهم يزحفون فعلاً باتجاه القمة محتمين بين أشجار البلوط الكثيفة.

قررنا مواصلة السير بمجرد أن يتوقف القصف. كنا قد أضعنا فترة ثمينة من الوقت. وبدأت بقعة الدم تتسع فوق سروال خالد. وعندما نهض ارتسمت على وجهه دلائل آلام مكبوتة. اتضح لنا أن شظية صغيرة قد اخترقت الفخذ فوق الركبة مباشرة. لم يكن الجرح في الحقيقة خطيراً، ولكن من المؤكد انه سيزداد خطورة عند المشي. وبالفعل بدأ الدم ينزف بعد عدة خطوات. كنا نعرف بأنه ليس هناك أي قرية مأهولة على طول ضفة نهر الكومل، لكننا لم نفقد الأمل في العثور على من يعيننا. وفكرنا في الذهاب إلى عائلة من الرعاة تقطن في كوخ غير بعيد، لكن خالداً بدا غير متحمس للفكرة. وقال محاولاً إقناعي:

ـ جرحي ليس خطيراً. والرسالة يجب أن نوصلها في الوقت المحدد، وفي حالة تأخرها، قد تتعرض مقراتنا إلى هجوم مباغت، فلمَ لا نواصل السير؟!.

رفضت رأيه بإصرار:

ـ قد يسعفونك في الكوخ.

كنا آنذاك في غاية الإنهاك. خيّل إلينا قد لا نبلغ الكوخ، برغم انه لم يكن يبعد غير خطوات قليلة. لقد أنهكنا الجوع والسهر والتعب. منذ يومين لم نستقر لحظة واحدة. حوادث الأمس تبدو وكأنها ذكريات من ماضٍ بعيد: في الصباح الباكر هاجمونا فجأة. اختطفوا(عمر) ثم أخذوه إلى مكان مجهول. أين؟ سجن رايات؟ ماوه ت؟ سرسنك؟ لا ندري. وعادوا مساءً فطوقونا ثانية. اجبرونا على القتال. وحين أصبحت المسألة مسالة حياة أو موت، اضطررنا أن نجابههم بالقوة. خلال المعركة كان خالد يقاتل إلى جانبي ببسالة وبرود أعصاب. لم يبد متأثراً لاعتقالهم (عمر) . وحين تقهقروا بدا من الواضح أنهم سيستنفرون قواهم ليهاجموا مقراتنا الأخرى بغتة. وكان من الضروري أن نبلغهم بذلك. وحين كلفوني بنقل رسالة الإبلاغ، أصرَّ (خالد) على مرافقتي.. وهاهو يمشي إلى جانبي.. دمه يسيل بغزارة. المشي يزيد جرحه سوءاً، لكنه لا يعير ذلك أهمية كبيرة. وحين توقفنا لأحمل عنه بندقيته، لمحت بقعاً من الدم تمتد على شكل شريط على طول الطريق المؤدي إلى النهر.. قلت له:

ـ دمك ينزف بشدة.

أجابني باستهانة:
ـ أستطيع مواصلة السير، ولكن إذا تطلب الأمر، عليك أن تتركني وحدي لتوصل الرسالة.
كان علينا أن ننحدر إلى وادٍ عميق تتخلله غابة كثيفة من أشجار الحور. لاح لنا الطريق وعراً. كان خالد يستند على كتفي في المنعطفات. واضطررنا أن نختبئ بين الأحراش عندما أخذت طائرة عسكرية تستطلع المنطقة. ومن مخبئنا ذاك لاح الكوخ جد قريب لنا. بعد قليل نستطيع أن نمضي فترة استراحة قصيرة هناك. انه كوخ بسيط من القش، من ذلك الطراز الذي يلجأ إليه الرعاة في موسم الصيف.. وحين خرجنا من بين الأدغال شاهدنا امرأة تغادر الكوخ وهي تحمل بين ذراعيها طفلاً.. لعلها هي الأخرى تبحث عن مكان آمن تحتمي فيه من قصف المدفعية. وعندما رأتنا تسمرت في مكانها مذعورة ، وراحت تتأملنا بصمت واستغراب، ثم صاحت بنا بصوت ينم عن التذمر والاستياء:
ـ ماذا تبغيان؟
ـ لاشيء. نود الاستراحة فترة قصيرة.
ـ ليس في البيت رجل..
وبعد لحظة صمت، استطردت تقول وعلى محياها تعلو سيماء الحذر:
ـ من أي جماعة انتم؟
أوقعنا سؤالها في حيرة. ماذا لو أنها كانت من العوائل المحسوبة على اليمين؟.
..وأجبتها بتريث:
ـ نحن من اليساريين.
عندئذ انفرجت أسارير وجهها، واتجهت نحو الكوخ وهي تنادي بصوت عال:
ـ خالة زينب! خالة زينب!
ثم بذعر وهي تهرول نحونا:
ـ هوه .. أنت جريح!
قال خالد:
ـ أجل.
همست باستياء فظيع:
ـ يبدو أنهم سيجددون القتال مرة أخرى.
قلت:
ـ نحن في غاية الإنهاك. وصاحبي كما ترين جريح. أيمكننا الاستراحة عندكم فترة قصيرة؟
أجابت بلهجة ترحيب:
ـ ولم لا؟.. خلف الكوخ يوجد كهف حصين. والإنسان يجد نفسه فيه في مأمن مهما اشتد القصف.

وحين شرعت بتفحص الجرح، قالت بحزن:
ـ لن ينجو أحد من شر القتال، بالأمس هاجمت مفرزة منهم كوخنا فنهبوه واعتقلوا زوجي.
وسألها خالد:
ـ لماذا فعلوا ذلك؟!
أجابت:
لأنه لم يكن يؤيدهم.
وعادت المرأة الشابة تصيح: " خالة زينب! خالة زينب!".
وحين خرجت من الكوخ عجوز قصيرة، ناحلة، تسمرت في مكانها لحظة كالمصعوقة، بمجرد أن وقع نظرها علينا، ثم قفلت راجعة إلى الكوخ وهي تشتم!.
قالت المرأة بتأنيب:
ـ لا تشتمي يا خالة ما علاقة هذين الرجلين بالذين خطفوا ابنك؟!.
صرخت العجوز بغضب وهي تدخل الكوخ:
ـ كلهم خنازير!!
وطغى على صوتها عواء قنبلة.. عربدت فوق رؤوسنا لحظة، ثم انفجرت في مكان قريب. طوّقت المرأة الشابة الطفل بذراعيها، وهرولت باتجاه الكهف. وقبل أن ندخل الكهف، أزَّت في الجو قذيفة أخرى، ثم انفجرت فوق سفح قريب. امتقع لون المرأة غير أنها لم تبدُ مضطربةً. شرع الطفل يبكي وهو يتشبث بصدرها.
وحين أوصلتنا إلى الكهف، قفلت عائدة وهي تنادي:
ـ تعالي يا خالة زينب، وإلاّ سيلحق بك الأذى، فإنهم يقصفون الوادي.
وسمعنا صوت العجوز يزعق بغضب:
ـ اتركيني وشأني. لن أغادر الكوخ حتى لو تهدمت جدرانه فوق رأسي.
عندئذ عادت المرأة الشابة وهي تقول:
ـ حماتي امرأة عنيدة خرقاء!
ثم بأسف:
لا بدّ وإنكما جائعان. ولكنهم نهبوا كل شيء، ولم يتركوا لنا حتى الخبز.
قال خالد مواسياً:
ـ إنهم بذلك إنما يسيئون إلى أنفسهم.
واستمروا يقصفون الوادي قصفاً عنيفاً متواصلاً. كانت القذائف تزمجر في الفضاء لحظات قصيرة، ثم تتساقط حوالينا فيمتلئ الوادي بأصوات إنفجاراتها الرهيبة. ولكننا كنا في مأمن من خطرها. شرعت المرأة الشابة تتحدث بطلاقة وعفوية عن وضع العائلة، وبدت ذات طبيعة مرحة، رغم مظاهر الأسى التي تركتها في نفسها أحداث الليلة الماضية. ومن خلال حديثها عرفنا أن زوجها قد قاوم ببسالة قبل أن يعتقلوه. لقد أخذوا يتنكرون إلى أخلص أصدقائهم تمهيداً

لإشعال النيران من جديد. وها هي قذائفهم تنهمر كالمطر لتحرق الأخضر واليابس.
كان الطفل آنذاك يرنو إلينا بفضول. ولعله لم يكن يعي ما يدور حوله لصغر سنه.
قلت للمرأة:
ـ قد يكون الصغير جائعاً. معنا قليل من الخبز. لمَ لا نناوله إياه.
هبت واقفة وهي تدمدم بأسف:
ـ آه.. نسيتُ أننا ما نزال نحتفظ بقليل من اللبن، لحظة سأجلبه لكما من الكوخ.
كان آنذاك صدى الإنفجارات يطرق آذاننا بوهن من مكان بعيد. وحين خرجت المرأة، ظلَّ الطفل يتمعن في بقع الدم فوق سروال خالد، ثم ما لبث أن انخرط في البكاء. كان الذعر يطلُّ من عينيه الزرقاوات. وأخيراً أفلحنا في تهدئته، وراح يلوك في فمه لقمة من الخبز. وحينما فحّت في سماء الوادي قذيفة مدفع، توقف الصغير عن مضغ الخبز منتظراً لحظة الانفلاق. وسقطت القذيفة في مكان ما دون أن تنفجر، راح الصغير يتطلع إلى الخارج منتظراً عودة أمه. فجأة علا في الوادي صراخ متواصل رهيب. ماذا جرى؟.. إنه صوت المرأة الشابة. حملتُ الطفل، واندفعنا إلى الخارج . كانت واقفة بباب الكوخ في حالة ذعر فظيع.
صحت بها:
ـ ماذا جرى؟ لماذا تصرخين هكذا؟!..
صرخت وهي تتهادى على الأرض:
ـ حماتي!
ـ ماذا جرى لها؟ لماذا تصرخين هكذا؟.
صاحت وهي تجر شعرها:
ـ قتلت!.
كانت العجوز غارقة في بركة من الدماء وقد فارقت الحياة. ثمة شظية اخترقت جمجمتها فوق الأذن اليمنى مباشرة. لا بدَّ وأن الشظية مرقت إلى الداخل من الباب، إذ أن أي قذيفة لم تصب الكوخ. أغمضنا عينيها المزججتين ثم غطينا وجهها بمنديل كان معقوداً فوق رأسها. بعدها التقت عيوننا في حيرة. أين ندفنها؟. كانت المرأة الشابة آنذاك قد كفّت عن البكاء، وراحت تراقبنا في ذهول وهي تحاول أن تحجب أنظار الصغير عن الجثمان.
همس خالد:
ـ لقد فارقت العجوز الحياة ببساطة متناهية.
ثم إلى المرأة الشابة:
ـ وماذا بشأن دفنها؟.
قالت المرأة الشابة بصوت واهن:
ـ أرجو أن تساعداني على دفنها.

كانت القذائف الهوجاء قد أحدثت عشرات الحفر في الوادي والعائلة لا تمتلك أدوات حفر. التقت عيوننا لتقرر أمراً: لمَ لا ندفنها في إحدى تلك الحفر؟. وفي مكان قريب وجدنا شجرة بلوط متهاوية على الأرض، تاركة في موضع الجذور حفرة عميقة. شرعنا نعمق الحفرة بقطع الخشب لنتخذ منها قبراً.. وبدأت قطرات الدم تسيل من جرح خالد، فاصطبغت جدران الحفرة ببقع حمراء قانية. وكان علينا أن ننهي مهمتنا قبل أن يعاودوا قصف الوادي. وعندما بدأنا نهيل التراب والحجارة فوق الجثمان، شرعت المرأة الشابة تبكي مرة أخرى، وقالت من خلال دموعها:

ـ كم كانت قاسية معي!

وعلى الفور دوى في السماء فحيح قنبلة قادمة، فحملت المرأة الصغير، واندفعت باتجاه الكوخ. صالح خالد:"إلى أين؟ ألا تعتقدين أن منظر الدم سيفزع الصغير؟!" عندئذ عادت وتهالكت بجانب شجرة جوز ضخمة. توهجت بيننا كتلة من الضياء، ثمّ ما لبثت الأرض أن اهتزت تحتنا. تطايرت الأتربة في الجو، وامتلأت خياشيمنا برائحة البارود. كنا غارقين تماما ً في زوبعة من دخان اسود كريه. وحين انقشعت سحب الدخان، وجدنا المرأة تطوق الصغير بذراعيها. بدت مذعورة إلى اقصر حد، وقالت باستياء.

ـ إن ما يجري هنا شيء فظيع جداً.

وعوت في الفضاء قنبلة أخرى. سقطت هذه المرة قريباً من الكوخ فتداعت زاوية منه.ثم اشتدت حدة القصف، وأخذت القنابل تنفجر بغضب وجنون. كانت شظاياها تفح فحيحاً بشعاً أثناء تطايرها في الهواء، ثم لا تلبث أن تسقط قريباً منا، فتغور في التربة الجبلية الهشة. زحفنا نحتمي خلف الصخور الضخمة، وعندما توقف القصف، غادرنا مواضعنا، إلاّ إننا تفاجئنا برشقة رصاص. كانوا إذن يرصدون تحركنا طوال الوقت، وها هم يحاصروننا. صرخ أحدهم بصوت رهيب من مكان مجهول:

ـ انتم محاصرون. هيا.. استسلموا!!

فردَّ خالد بتحدٍ:

ـ اقتربوا.. وسترون!

وكان علينا أن نحمي أنفسنا بسرعة. أطلقنا عدة عيارات نارية باتجاه الصوت، ثم شرعنا نتدحرج إلى أسفل الوادي. تعثرت المرأة أكثر من مرة، وحين فتحوا علينا نيران أسلحتهم الرشاشة، ندت عنها صرخة متوجعة. حملت الطفل، وقفزت احتمي بين الصخور. قرفصت المرأة إلى جانبي وهي ترتعد. كان خالد قد احتمى على بعد خطوات منا.. وأصبحنا آنذاك في مأمن من بطشهم. وكان علينا أن نضع خطة للإفلات من تطويقهم بأسرع ما يمكن. غير أن خالداً هبَّ واقفاً بتهور، وراح يطلق النار نحوهم، وهو يصيح باستهزاء:

ـ ها نحن هنا. جربوا أن تقتربوا.

صرخت:
ـ خالد. الموقف حرج. وهو ليس في صالحنا. المرأة جرحت في يدها. دعهم. ولننسحب.
أطلق عدة عيارات نارية أخرى، ثم زحف نحونا. شرعنا نربط جرح المرأة بمنديل، لكنه سرعان ما تلطخ بالدم. شرع الصغير يبكي.
وبدت المرأة في غاية الأسى. أخذت تجيل بأنظارها في أرجاء الوادي. لقد استحال إلى خراب. عشرات الأشجار الضخمة تهاوت على الأرض، بعد أن اقتلعتها القذائف من الأساس. والكوخ تهدم كلياً. وثمة قذيفة ضالة سقطت على مقربة من قبر العجوز، فأهالت عليه أكواماً جديدة من الأتربة وكان الرصاص ما يزال يئز فوق رؤوسنا، وبدأ بعضهم يزحف نحونا محتمياً بين أشجار البلوط. إنهم يحاولون إحكام الطوق علينا.. الموقف عصيب. وينبغي العمل بسرعة ويقظة. ملأت مخزن البندقية بالرصاص، وقلت وانأ أطلق النار:
ـ خالد. هيا انسحبوا، أنت والمرأة، وليحمل من استطاع منكما الصغير.. وسأمكث فترة لأحمي انسحابكم.
كان الموقف ما يزال في صالحنا عند الانسحاب، تبقت لدي بضع أطلاقات، ولكنها كافية لمشاغلتهم فترة قصيرة.. حمل خالد الطفل واندفع يعدو محتميا ً بجرف صخري وأسرعت المرأة تركض وراءه. وحين تأكدت بان نيرانهم لا تستطيع أن تصيبنا، غادرت موضعي وشرعت أعدو محتميا ً بالجرف، بدأت كثافة الأحراش تزداد، لكنني كنت على معرفة تامة بجميع مسالك المنطقة. في المنعطف حاولوا أن يقطعوا عليَّ الطريق، اضطررت أن أقاتل فترة وانسحب أخرى حتى نفذ عتادي حينئذ هبطت إلى أسفل الوادي، وأخذت أعدو بأقصى طاقتي، لم اكترث إلى ما كانت تحدثه الأغصان اليابسة من جروح في جسدي، كان ذهني مشغولاً بمصير خالد والمرأة والطفل. أين تراهم الآن؟. بدأت أصيح بأعلى صوتي:" خالد! خالد!" فإذا بعشرات الوديان تردد بعدي: " خالد! خالد!" من المؤكد أنهم نجوا من الطوق.. ولكن أي طريق سلكوا؟. كررت النداء، فكانت الوديان تردد صوتي بسخرية فظيعة، أصبحت في غاية الإنهاك، كانت حرارة الظهيرة تكوي جسدي، وجفَّ حلقي من شدة العطش. وكان يعذبني سؤال: كيف أعود بدون خالد؟. عرجت أستريح تحت ظل شجرة، شعرت بقواي تخور، وثمة طنين يدوي في رأسي، الخدر يسري في كياني، ماذا لو أنهم داهموني وأنا نائم؟ وكما لو أنني كنت في الحلم، سمعت طقطقة الأغصان وهي تتكسر تحت أقدام..
لم يعد معي طلقة واحدة. سيعتقلونني ويقودوني كالخروف. جاهدت، وبصعوبة بالغة فتحت عيني، فإذا بمفرزة من رجالنا تتجه نحوي، ورأيت برفقتهم الصغير والمرأة وخالداً. وفي فرح كبير امتدت يدي لتبحث عن الرسالة.

الثلوج

قبيل الفجر انطلق ميرزا متوجهاً نحو الجبل. وبعدما غادر القرية، اتضح له بأن الوقت ما زال مبكراً .
امتطى حماره الضامر، وشرع يوجههُ عِبرَ الوادي العميق الممتد من القريةِ إلى الجبلِ، خاطب نفسه قائلاً: "عندما تشرق الشمس سأكون قد بلغت قمة الجبل".
أحسَّ بالرهبةِ وسط الظلمة الكثيفة، الظلمة التي تغلّف الكائنات من حواليه بلون رمادي وهو يواصل السير معتمداً على خبرة الحمار الفطرية.
وعندما لاحت له في الأفق الشرقي هالة فضية رقيقة، أدرك أن الفجر يقترب.
كان جسده يرتعد في مهب رياح شتوية قاسية. دمعت عيناه من شدة البرد، لكنه واصل سيره وهو يفكر: " حسناً فعلتُ بخروجي من البيت مبكراً ، سأعود بحمل الحطب إلى البيت في وقت مبكر أيضاً".
ظلّ يصغي إلى وقع حوافر الحمار على الأرض الصخرية القاسية، وقال لنفسه: " البرد فظيع" وأسرع في مشيه آملاً أنْ يسري الدفء في جسده. في وسط الوادي لاحت له أشجار الصفصاف غارقة في الظلمة كأشباح أسطورية.
امتلأت خياشيمه بعبير الأوراق المبتلة. أحسَّ بالنشوة وهو يصغي إلى خرير المياه المتدفقة بين الصخور.
توقف الحمار ليبول في وسط جدول. نخسهُ بحنقٍ، عندئذٍ اندفع الحمار مسرعاً في سيرهِ.
فوق قمم الجبال البعيدة، كانت الهالة الفضية قد بدأت تكبر. الفجر يزحف، ها هي الطيور تغني بجذل مؤذنة بحلول نهار جديد..
توقف الحمار ليلتهم قبضة من الكلأ ، ضربه ميرزا على مؤخرته حاثاً إياه على المضي: "جج..جج" وحين تلكأ الحمار، امتطى ميرزا ظهره بقفزة واحدة.
مع شروق الشمس بلغ قمة الجبل. قرفص مستنداً بظهره إلى جذع شجرة بلوط في مواجهة الشمس البكر.
انتابته قشعريرة مفاجئة، انتفض لها جسمه، فرك يديه بقوة وهو يخاطب نفسه: " سأتجمد من البردِ إنْ لمْ أباشر بالعمل". وحين ألقى نظرة على رقعة السهول الممتدة نحو الجنوب، لاحت له عشرات القرى المبعثرة عليها بغير انتظام.. وفي قريته الرابضة تحت الجبل مباشرة، كانت أعمدة الدخان تتصاعد من المدافئ في

جميع البيوت، قال لنفسه "الشتاء على الأبواب . قد تسقط ثلوج كثيرة، والعاقل من يستغل الفرصة ليخزن اكبر كمية من الحطب".
توغل في أعماق الغابة، والفأس في يده، ثم قال: "هذا مكان ملائم لقطع الخشب"
رددت الوديان صدى ضرباته:
- طاق.. طق..طاق.. طق..
استمر يقطع الخشب بسرعة فائقة، رغم البرد القارص، تصبب جسده عرقاً..
التقط أنفاسه.. وفي حبور استنشق رائحة الغابة المحببة إلى نفسه، الرائحة التي هي مزيج من عفن الأوراق الخريفية الذابلة وأريج التربة الجبلية المبتلة، بدت له الغابة موحشة، كئيبة، ساكنة في ذلك الفصل من السنة: الأشجار تنتصب في خشوع عارية من الأوراق، والثمار البرية تختفي تحت الأوراق المتكدسة على الأرض.
هذا هو موسم الرقاد في الغابة؟
عاد يعمل من جديد وهو يفكر:" لا بدَّ من الحصول على البلوط أو الزعرور من اجل الصغار".
عندما جلس يتناول طعامه، شرع يتلهى بالنظر إلى السلاسل الجبلية المتعاقبة الممتدة حتى الأناضول. كانت آكامها مكللة بالثلوج، انتبه إلى أن قطعات من الغيوم البيضاء تتراكض في عرض السماء مسرعة.. قال يحدث نفسه " يجب أن انهي عملي بسرعة".. عندما عاود العمل مرة أخرى، كانت السماء قد تلبدت بالغيوم فقرر أن يرزم الحطب.
صفع وجهه رذاذ بارد:" لقد بدأت تمطر.. عليَّ أن أعود بسرعة إلى القرية".
انهمك في رزم الأخشاب المقطوعة فوق ظهر الحمار. رذاذ المطر يزداد ابتلت ملابسه. شعر ببرودة جليدية تسري في عظامه. احمرت أنامله حتى كاد الدم يطفر منها. شعر بالجزع:" وحيد في هذا المكان الموحش.. لكن لا يا ميرزا. أنت ابن الجبل، ويجب ألاّ تخيفك قسوة الطبيعة.. أنت رجل!".
أظلمت الدنيا. نتف من الثلج تتراقص الآن هائمة فوق رؤوس الأشجار باضطراب شديد.
تهيأ ميرزا للعودة وهو يقول :"الثلج جاء قبل الأوان.. سيذوب ولن يقاوم".
امتلأ الجو بعدد هائل لا حصر له من نتف الثلج.. كما توقع، إن نتف الثلج كانت تذوب بمجرد وصولها إلى الأرض.. حين بلغ القمة تزايد تساقط الثلج بشكل غريب. إنه الآن يقاوم. الكلأ يكتسي بلون أبيض. شعر بقلق بالغ: "الذئاب تهاجم الإنسان في مثل هذه الحالة..!". أطبق على الفأس بقوة. حتى الذئاب لن تقهره... الثلج يزداد. مجال الرؤية يضيق من حواليه. ليكن.. لن يضل الطريق. سيهتدي بالأشجار الضخمة، بالصخور، بشكل الأرض.. يعرف المكان جيداً وسيصل القرية بسلام.
الجو يكفهر. والرياح تعوي في أرجاء الجبل. الثلوج تتراكم بسرعة مذهلة.

توقف لحظة لينفض الثلوج المتراكمة على ملابسه. قدماه تغوصان في الثلج تتجمدان.
قال لنفسه:
ـ يجب أن استمر. التوقف يعني الموت. سأتجمد من البرد إذا توقفتُ.
العاصفة تزداد غضبا . الحمار يترنحُ تحت حمله الثقيل: "ميرزا! إذا سقط الحمار، ستبدأ مشكلتك الحقيقية!" . الرياح تعربد، والرياح تلقي بحملها الثقيل من الثلج في عرض الطريق:"عليك أن تعين الحمار في المنعطفات.. ينبغي أن توصله سالماً.. ماذا؟ أترضى أن يسخر منك رجال القرية؟.. أترضى أن يقولوا عاد بدون حماره؟! لا ... مستحيل . هم يعرفون جيداً أي رجل هو ميرزا!".
زلقت رجل الحمار، ترنحَ باتجاه هاوية سحيقة، لكنه استعاد توازنه ومضى في طريقه..
قال ميرزا لنفسه: "من كان يظن بان الثلوج ستتساقط بهذه الغزارة؟. الثلج يعيقني.. قد أتأخر، لا شك أنهم سيقلقون عليَّ كثيراً.آه.. لوْ لمْ أجيء إلى الجبل، لكن لا فائدة من الندم يجب ألاّ أتوقف، وإلاّ فإنني سأتجمد" . نخس ميرزا الحمار حاثاً إياه على السير.
في أحد المنعطفات، كبا الحمار، أعانه ميرزا وهو يقول: " هو أيضاً يرتعد مثلي من البرد والتعب".
واصل سيره، فجأة في أحد المنعطفات الحادة زلقت رجل الحمار مرة أخرى.. امسك ميرزا بحمل الحطب، لكن الحمار انهار تماماً.. ترنحَ لحظة، ثم هوى باتجاه الوادي العميق. ظلّ ميرزا متشبثاً وهو يتدحرج بجانب الحمار نحو الهاوية. ندت عن الحيوان المسكين نهقة قصيرة متوجعة. ارتطم ميرزا بصخرة. شعر كأن بريقاً احمر يقدح في عينيه، نهض بسرعة ألقى نظرة سريعة نحو الهاوية. كاد أن يفقد صوابه:" الحمار يتدحرج الآن بسرعة نحو الأعماق. لا يعرف كيف أفلت من يده؟!".
علت وجهه صفرة مريعة، أحس بدفء مفاجئ يسري في قدمه. فهمس لنفسه:" لقد جُرحتُ".
تناهت إلى أسماعه نهقة أخرى: آه.. الحيوان المسكين يستغيث من شدة الألم!..
استقر الحمار في بطن الوادي. اندفع ميرزا غير آبه. يا للمصيبة!..
الحمار في النزع الأخير. قوائمه تختلجُ بوهن، رأسه مطروح على الأرض باستسلام، أسنانه تنطبق في تكشيرة مرعبة تنذر بحلول الموت. ها هو يتحشرج.. يرفس رفسة أخيرة، ثم يرقد بلا حراك. نظر ميرزا إلى الثلج المختلط بالدم والروث، قال متحسراً: لقد مات الحمار، ذهبت جهودك سدى يا ميرزا..!
تحسَسَ موضع الجرح في قدمه. فرك يديه بعنف وقوة، وقال:
ـ يجب أن أحرر الحمار من حمله.

عندما بدأ بتحرير الحمار من حمل الحطب، قدحت في ذهنه على الفور فكرة غريبة..
من خلال الضباب الذي بدأ ينقشع، نظر بعيداً باتجاه قريته. تنهد: لمَ لا يحمل الحطب على ظهره إلى البيت؟؟. لوْ عادَ إلى القرية خائباً، بلا حمار، بلا حطب، سيهزئون به.. ميرزا ذهب إلى الجبل وعاد بدون حمار! لا..لا.. يا هؤلاء، لن اسمح لأحد منكم بالتطاول عليّ أبداً..!
بصق باستياء: (تفو!).
ألقى نظرة وداع على حماره العزيز، ثم قعد مستنداً بعجيزته على الأرض.
رفع وجهه نحو السماء، قال بصوتٍ عالٍ:
ـ يا الله.
هتف مستنجداً بربه كمن يريد أن يشحذ عزيمته.
استند على الأرض بإحدى يديه، راحَ يسحب حمل الحطب فوق ظهره باليد الأخرى، حين حاول النهوض كاد أن يقصم ظهره تحت حمله الثقيل. أخيراً نهض. شرع يصعد السفح وجسمه يتصبب عرقاً . حين رجع إلى الطريق، ألقى نظرة أخيرة على جثة الحمار الراقدة في أعماق الوادي، تطلع بعيداً نحو القرية، حمد ربه لأن الثلوج توقفت عن التساقط. سار بضع خطوات مترنحاً في مهب الرياح الشتوية القاسية، جائع.. منهك.. قدمه تؤلمه: لمَ لا يتخلص من حمل الحطب؟. إذا زلت قدمه، إذا سقط، فلن يكون مصيره بأفضل من مصير الحمار".
توقف لحظة يفكر في المسألة. القرية ما تزال بعيدة، وعبر المسافة الممتدة ما بين الجبل والقرية. لم ير شيئاً سوى رقعة واسعة من الثلج. لم يلق حمله.. مضى في طريقه، يسير مترنحاً، مقوس الظهر، وقدماه تغوصان في الثلج.
في صباح اليوم التالي رأى الناس فوق رقعة الثلج خطاً طويلاً متعرجاً يمتد من القرية إلى الجبل.

الخلاص

ألقى الابن نظرة جانبية خاطفة على رقعة كتب عليها "ربيعة25كم" ثم أعلن السائق قائلاً:
ـ ها نحن نقترب من الحدود العراقية.
ومضت السيارة تنهبُ الأرض بجنون. كان حفيف الهواء يختلط بأزيز الإطارات في ضوضاء رتيبة مملة. اعتدل الأب العجوز، وتطلع عبر أراضي الجزيرة الجرداء الممتدة على جانبي الطريق، ثم مدّ عنقه المتغضن إلى الأمام وهو يفكر: "هاهو يعود للعراق من جديد، بعد اغتراب دامَ العمر كله. ذكريات الطفولة والصبا تعاوده طرية في الذهن كأنها حدثت بالأمس. ولكن.. يا للخيبة! إنه يعود للعراق مفلساً مثلما هاجرَ منهُ. الحرب هدمت في لحظةٍ ما بناهُ خلال نصف قرن من الزمان". استلقى على المقعد الخلفي، وهو يجاهدُ في أنْ يخفي دموعاً حبيسة. وهنا سأل الابن:
ـ كم تبعد (كرمليس) عن مدينة الموصل يا أبي؟
عندها انهار الأب تماماً. أجهشَ بالبكاءِ كالطفل، وقال باقتضاب ومرارة:
مسيرة أربع ساعات على الأقدام فقط.
فكر الابن بسرعة: "من ربيعة إلى الموصل ساعتان ونصف. ومن الموصل إلى (كرمليس) ساعة ونصف. من المحتمل إذن أن يبلغوا القرية قبيل غروب الشمس".
قال الابن مواسياً:
ـ لا تبكِ يا أبي. هذا قدرنا. سنبلغُ (كرمليس) قبلَ الغروب بعون الربِ!.
ثم التفت بسرعةٍ نحو زوجته كانتْ هي الأخرى تبكي بصمتٍ.. ولاحظ بأن الطفلة كانت مستسلمة للنوم . كادَ أنْ ينهار هو أيضاً. ولكن.. لا .. إنه قائد العائلة. صحيح أن محنتهم كبيرة، ولكن ينبغي عليه أن يكبح مشاعره. من اجل العائلة يجب أن يقهر ضعفه.. وهمسَ بتأنيبٍ:
ـ مالكِ يا مَريم؟ الم يكنْ مِنَ الأجدر أن تواسي الأب المتعب؟.
لمْ تنبسَ مريم بكلمة واحدةٍ. وخيّم الصمت من جديد. تسمّرت عيناهُ على الإسفلت الأسودِ الممتد وسط الصحراء كثعبان أسطوري، في حين غرقت الزوجة في أفكار حزينة: "بعد قليل، ربما بعد دقائق، سيغادرون سورية موطنها. آه.. لو لم تكن وحيدة، لو كان لها أهل، لاستطاعوا إذن، أن يحلّوا عندهم ريثما تنجلي الغيوم عن لبنان. ولكنها وحيدة.. وحيدة كغصن مقطوع من شجرة. أمها ماتت بعد أن تزوجت هي من لبناني. ومهما يكن فإن مصيرها مرتبط بمصيره، وها هي إلى جانبه، في رحلة إلى ديار ابن خال حميها.. رحلة؟.. رحلة؟ من يقول هذا؟؟. العائلة هاربة من

بركان لعين انفجر فجأة.. حتى ملابس النوم لم يجلبوها معهم.. فيا للخجل.. ماذا سيقولون عنهم في العراق؟".
عند نقطة الحدود طالعتهم لوحة أخرى كُتب عليها "ربيعة: مرحباً بكم في العراق". وأوقف الابن السيارة في نقطة الكمارك قائلاً:
ـ هيا .. انزلوا.. نحن الآن في العراق.
ثم أردفَ مازحاً :
ـ ها أنت تعود حياً إلى وطنك يا أبي.. وعندما نصل مسقط رأسك قد ترجع شاباً!.
انفرجت أسارير الأب. نظر بعيداً باتجاه الشرق، بعيداًحيث تقع قريته.. وفي خشوع عجيب، خشوع يناظر خشوع المصلي حين يتجه إلى ربهِ، انحنى الأب على الأرض، وملأ كفهُ بحفنةٍ من الترابِ، ضغط براحةِ يده على التراب، ثم فتحها ، فانهال من بين أصابعه على الأرض.. وانسابت الدموع على خديه، لكنها كانت هذه المرة، دموع ابن يلقي بنفسه في أحضان أمه بعد غياب طويل.
وبعد إجراءات التفتيش الشكلية انطلقت السيارة تواصل رحلتها. سال الابن أباه:
ـ أتتذكر معالم الموصل وشوارعها يا أبي؟
أجاب الأب بثقة:
ـ بكل تأكيد، كأنني فارقتها بالأمس.. أعرف معالمهما مثلما تعرف أنت بيروت.
إذن لن نحتاج إلى أي استفسار عن الطريق المؤدية إلى (كرمليس)؟.
ـ لا أبداً.
ضغط الابن على فرامل السيارة، ثم انعطف بها بحدة ليوقفها خارج الشارع، وهو يقول:
ـ يمكننا أن نمضي بضع دقائق من الراحة هنا، وسوف لن نتوقف بعدها حتى نصل الموصل.
وحين نزلوا من السيارة بدوا جميعاً في غاية الإنهاك. الأب مجهد إلى أقصى حد. تنمّ عن ذلك تجاعيد وجهه التي بَدت أكثر عمقاً وتشابكاً كأنها أخاديد غير منتظمة في أرض محروثة.. الزوجة زادها السفر نحولاً، تطلّ من وجهها علامات قلق أخرس. الطفلة ما يزال النعاس يسيطر عليها، تتطلع حواليها باستغراب، وعلى وجهها البريء يرتسم أكثر من سؤال.
حَدثت الأمُ الطفلة بحنان محاولة طمأنتها:
ـ سوسن.. نحن الآن في العراق.. وعند المساء سنصل بيت.. بيت.. ابن الخال.
همست الطفلة ببراءة:
ـ ليس لي خال.. أما كنتِ تحدثيني عن ذلكَ دائما يا أمي العزيزة؟!.
بدت الزوجة محرجة، فقال الزوج:
ـ إنها تقصد ابن خال أبي. سوف تعرفينه وتحبينه حينما نصل هناك.
سألت الطفلة مرة أخرى:

ـ أين نحن الآن؟ .
أجاب أبوها من خلال ضحكة قصيرة:
الم تقل لكِ أمك بأننا الآن في العراق؟
بعد استراحة قصيرة، انطلقت السيارة تواصل رحلتها. كان ذهن الطفلة مشغولاً بشيء واحد: العراق؟ ما هو العراق؟ كيف هو شكل العراق؟.. كانت الصغيرة تطرح الأسئلة على أبيها، فيجيبها باقتضاب. ذهنه مشغول بشيء آخر: بيروت الآن أضحت بالنسبة لهم مجرد ذكرى.. بيروت الجميلة، بيروت الحنونة، بيروت التي كانت ملاذ كل مضطهد وكل مبعد وكل مشرد عن وطنه، بيروت هذه .. تحولت فجأة إلى ساحة للنيران والحرائق والدمار. الموت يحصدُ الناس بلا حسابٍ. البيوت تتداعى على رؤوس أصحابها. الأحياء يحسدون الأموات. كابوس رهيب.. في غمرة هذا الصراخ الذي اجتاح المدينة، فقدت العائلة كل شيء. النيران التهمت مخزنهم، مخزن الألبسة الجاهزة في شارع الحمراء. في غمضة عين استحال المخزن إلى رماد. هكذا تحطمت آمالهم. المخزن الذي هو ثمرة جهود أبيه لفترة طويلة من الزمن، ومن ثم جهوده هو، استحال إلى لا شيء.. توالت المصائب.. في غمرة القصف العشوائي الأهوج تداعى ركن كبير من بيتهم. الصدف، والصدف وحدها، بمشيئة الرب، هي التي أنقذتهم.. لقد نجوا من موت حقيقي .. الندم لا ينفع، ليذهب كل شيء إلى الجحيم ما داموا هم أحياء سالمين.
وأعلن الابن :
ـ هذه محطة الكسْكْ.. نحن الآن على بعد 50 كيلومتراً من مدينة الموصل.
اعتدل الأب وأشعل سيكارة، تطلع إلى القرية من خلال نافذة السيارة. فكر مع نفسه: "هذه البلدة لا تشبهُ القرية القديمة التي شاهدها من قبل. من المؤكد أن مدينة الموصل قد تغيرت هي الأخرى .. من يقول أن (كرمليس) قريته لم تتغير هي أيضاً؟!".. في إعياء شديد تهدل رأسه بقنوط كأنما الشيخوخة داهمته دفعة واحدة. منذ أن هاجر إلى لبنان- قبل حوالي أربعين سنة- لم يقدَّر له أن يرى موطنه ولو مرة واحدة- ظلَّ على اتصال مع أقربائه عن طريق المراسلة.. كان في البداية يراسلهم باستمرار، لكن بمضي الزمن أخذت الرسائل تشحُ بين الطرفين. في السنوات الأخيرة انقطعت رسائلهم تماماً. ها هو يرى كل شيء قد تغير.. من يقول أن الناس الذين عرفهم لم يتغيروا هم أيضاً؟!.
استسلمت الزوجة للنعاس، في حين ظل الأب غارقاً في أفكاره.
وأعلن الابن:
هذه لافتة تشير إلى أننا على بعد خمسة عشر كيلومتراً من الموصل.
نظر الأب بعيداً حيث لاحت لهم معالم المدينة "الموصل؟ حسناً..! ها هو يعود إليها ثانية، يعود إليها شيخاً مهدماً بعدما غادرها فتىً يافعاً مملوءاً بالطموح. إنه ما يزال يذكر كل شيء، كأنه حدث بالأمس: رحلاته مع والده عند الفجر إلى

سوق (الكَبْ)، الجسر الخشبي . باب الطوب. خان الباليوز. كباب البلدية ذي النكهة الخاصة. فتيان المدينة الجسرين إلى حد التهور..وهو يعرف كثيراً من الدكاكين التي كان أبوه يتعامل مع أصحابها. لكن مهلاً..! أربعون عاماً ليست بزمن قصير.. لا بدَّ وأن الكثير مما يعرفهُ عن المدينة قد تغير، الصورة القديمة المطبوعة في ذهنه للمدينة لا يمكن أن تبقى على حالها. الشبان الذين عرفهم- والذين ما زالوا شباناً في مخيلته- لا بدَّ وان يكونوا قد ماتوا الآن أو شاخوا مثله على الأقل . كل شيء في تغيير مستمر. هذه هي سنة الطبيعة.
عند مدخل المدينة طالعتهم رقعة كبيرة كتب عليها بخط النسخ الأنيق:
(مرحباً بكم في أم الربيعين).
اعتدل أفراد العائلة في جلستهم. ها هي مدينة الموصل تلوح لهم جميلة كعروس في ليلة زفافها. الرحلة، إذن، توشك على الانتهاء.. وبرغم التعب أحسوا كأن نشاطاً جديداً يدبُ في أجسادهم. تيقظت حواسهم وهم يتأملون بحبور معالم المدينة: بساتين الزيتون والفستق تمتد على جانبي الطريق. عشرات المآذن والقباب ترتفع في السماء. ما أجمل تلك المنارة، حين اجتازوا (حي الثورة) سألت الزوجة حماها:
ـ ما أسم هذا لحي يا عمي؟
أجاب الشيخ بصوت واهن:
ـ لا ادري.. عندما هاجرتُ إلى لبنان لم يكن ثمة أي بيت في هذه المنطقة.
وعند مفترق أحد الشوارع سأل الابن:
ـ في أي اتجاهٍ نسيرُ يا أبي؟
أجاب الأب بانكسار:
ـ لا ادري..! حتى هذه الشوارع لم يكن لها وجود في ذلك الزمن.
ظلَّ الأب يتمعن فيما يقع تحت أنظاره: الشوارع. الحوانيت، الناس، البيوت.. ازداد حيرة. أيمكن أن يتبدل كل شيء هكذا؟! كأنما هذه المدينة ليست المدينة التي كان يعرفها شبراً شبراً. عمارات ضخمة. ساحات واسعة، شوارع عريضة وفنية.. إذا كانت المدينة قد تغيرت بهذا الشكل، من يقول أن قريتهم (كرمليس) لم تتغير هي الأخرى؟.. ماذا سيقول للعائلة عندئذٍ؟!. أحس الشيخ أن العالم الذي طالما اشتاق إليه، لم يعد له أي وجود إلا في ذهنه.
همس بصوت واهن كأنه آتٍ من مكان عميق يخاطب ابنه:
ـ لشدَّ ما تغيّرت المدينة!.
ابتسم الابن وهو يجيب:
ـ لا تيأس يا أبي.. أستطيع أن استدل على الطريق بواسطة إشارات المرور.
ظلت السيارة تدور من شارع إلى شارع، وأخيراً انعطف بها الابن إلى إحدى الساحات.
سأل الأب بخجل :

ـ أين نحنُ الآن؟
قال الابن ضاحكاً:
ـ نحن الآن في باب الطوب، مركز المدينة!.
قال الأب متعجبا
ـ ولكن هذا المكان لا يشبه باب الطوب.
أكد الابن بإصرار:
ـ هذا هو باب الطوب، عشرات الرقع تشير إلى أن هذا المكان هو باب الطوب.
عندئذ أحَسَّ الابن بأن إصرارهِ يجرحُ كبرياء الشيخ، فأردف يقول بحنان كما لو كان يخاطب طفلاً:
ـ يا أبي.. لا تنسَ أن كل شيء قد تغير. فأنت منذ أربعين عاماً لم ترَ هذا المكان.
عاودوا الرحلة من جديد. اجتازت السيارة (الجسر الجديد). عندئذ فقط اتضحت للأب معالم المدينة: ذلك هو الجسر القديم. هو .. هو.. لم يتغير فيه شيء. كان يأتي مع والده لبيع البطيخ تحت الجسر في سوق (الكَب). ذلك هو تل (النبي يونس). تعجبَ من طغيان البناء الذي امتدَ بعيداً بعيداً في الجانب الأيسر من المدينة.. أحس الأب بالانشراح. تذكر انه كان يعمل - وهو صبي- باجرة قدرها (10) فلوس مع الانكليز الذين كانوا يبحثون عن الآثار في تل (قوينجق) . تملكته رغبة جامحة في أن يحدث العائلة عن تلك الأيام البعيدة، إلاّ أنه كتم مشاعره ..أتاهُ صوت ابنه يسأل:
ـ لقد غادرنا المدينة.. هل تستطيع أن تستدل على طريق القرية يا أبي؟
أجاب بحماس:
ـ أجل سر في نفس اتجاهك، بعد وقت قصير سنصل (كرمليس). في القرية تجمهر الناس حول السيارة التي تحمل رقماً لبنانياً. ظلَّ أفراد العائلة، وللحظة قصيرة جداً، قابعين داخل السيارة، متشبثين بمقاعدهم: عشرات العيون تتطلع إليهم بفضول. ما الذي جعل عائلة لبنانية تقصد قريتهم؟. في ذهول غريب كان الأب يتأمل وجوههم تارة، ويرنو إلى البيوت الجديدة تارة أخرى. أين بيت ابن خاله؟ بل أين ابن خاله؟ وأين أهل القرية الآخرون؟ أيها الناس! لا احد منكم يعرف؟ أنا زكي العراقي في لبنان، وزكي اللبناني في العراق.. هل نسيتم؟ أين آباؤكم؟ إنهم يعرفونني جيداً. وابن خالي: حنا الصقال؟ أين هو؟ تقولون سافر إلى جهة مجهولة؟ يا للخيبة..! يرفع الأب رأسه الأشيب، يقول: أنا من قريتكم؟؟ ألا تعرفونني؟. يَهزُ الفلاحون رؤوسهم نفياً لكن أسارير وجوههم الطيبة تقول: طالما انتم من لبنان، تفضلوا على الرحب والسعة. بيوتنا بيوتكم، يتشبثُ الأب بخيط واهٍ من الأمل. كل الذين في مثل عمره ماتوا. أقاربه رحلوا إلى مدن أخرى. يزفر الأب متحسراً، يتهدل رأسه بانكسار، تلتقي نظرات الزوجين في حوار صامت: "العراق واسع".

وتنطلق السيارة مغادرة القرية في سرعة جنونية، باحثة عن مكان آخر فوق هذه الأرض الواسعة.
1978/9/1

الطلقة الأخيرة

عندَ منتصف الليل تحركتْ مجموعتنا باتجاه مضيق الشيب. كانتْ الأرض من حولنا قاسية ملعونة. كثبان من الرمل، لا شيء آخر غير الكثبان. من حين لآخر، كانت السيارة تغوص في الرمال، لكنها لا تلبثُ أن تعاود السير، مثيرة وراءها زوبعة طويلة من الغبار. كان الظلام ما زال مخيّماً حين بلغنا الهدف.. تركنا السيارة في مكان قريب- بعد أن غطيناها بالأدغال الصحراوية- ثم أسرعنا ننحدر نحو وادٍ عميق.

في بطن الوادي بالضبط توقفنا. بدَدَ سكون الليل صوت الملازم صالح وهو يقول:

ـ هنا سننصب كميناً. المكان ملائم، هيا يا أخواني، تفرقوا: ليتخذ كل منا موضعه.

كنا ثمانية مقاتلين، تفرقنا بالتساوي على جانبي الوادي، اختبأنا في أماكن حصينة كان هدفنا- كما كانت تقتضي التعليمات- هو أسر عدد من الإيرانيين أحياء. هذه هي فرصتنا، منذ يومين الرائد حسن يردد على مسامعنا:" هدوء الإيرانيون على طول خط الجبهة، يعني أنهم يستعدون لشن هجوم معاكس علينا.. لا بدَّ من الحصول على رأس كبير لانتزاع المعلومات منه!"

التصقنا بالأرض ننتظر بأعصاب مشدودة. لنْ ندع أحداً منهم يفلتُ من قبضتنا. ثمة سيارة إيرانية- كما اخبرنا الراصد- تجتاز الوادي، يومياً عند الفجر، وبحكم طبيعة الوادي، فإن السيارة ستكون هدفاً سهلاً لنيراننا الكثيفة.

بعد قليل، صاح الملازم صالح:

ـ تهيأ!

أصغينا، السيارة تقتربُ. هاهي تنحدر إلى بطنِ الوادي.. احتبست أنفاسنا.

السيارة جد قريبة.. هي الآن في الهدف، لحظة وينتهي كل شيء. زَأرَ الملازم صالح:

ـ أرمِ!

أطلقنا زخة من النيران باتجاه إطارات السيارة، انفجر الإطار الأمامي، ترنحت السيارة ذات اليمين وذات اليسار، ثم مالت فوق أحد الكثبان، من المحتمل أنْ يكون سائقها قد قتل. صاح بهم الملازم صالح:

ـ "استسلموا!.. استسلموا!.. وإلاّ فإننا سنحصدكم" وعلا داخل السيارة لغط فارسي، أعقبه حالاً رمي عشوائي.. قذفنا السيارة بصاروخ، تهشمت مؤخرتها، وتحطمت الإطارات الخلفية.. قذفوا باتجاهنا عدة قنابل يدوية، لا أتذكر تفاصيل ما حدث بعدئذٍ، نيران.. ظلام ودخان، وزعقات بشرية تصمُ الآذان. لم يستغرق كل ما حدث سوى لحظة قصيرة من الزمن، لكنها لحظة مروعة تشلُ الذهن. أتذكر، فقط، أن إيرانياً طفر من السيارة بارتياع، كان أعزلاً، رفع يديه مستسلماً، حين بدأتُ

اقترب منه، صمت آذاني فرقة فظيعة، يا إلهي.. ماذا حدث؟. لابدَّ أنّ أحدهم نسف السيارة من الداخل. اصطدمت بجسم صلب، خارت قواي، تهالكت على الأرض، ثم استسلمت لخدر لذيذ، شعرتُ كأنني أغرق في نوم عميق.
ـ آه. كم تؤلمني ذراعي. يبدو كأن آلاف المسامير قد غرزت فيها.
كان هذا أول شيء اشعر به وأنا أفيق من غيبوبتي.. عندما استردت وعيي كاملاً بدأتُ استعيد في ذهني تفاصيل ما حدث:" لقد فجر إيراني جبان السيارة من الداخل، فانقلبت على ذراعي.. لوْ بقيَ احد من مجموعتنا لبذل المستحيل في سبيل إنقاذي".. شعرتُ بألم مر يعصر قلبي: " صالح! ماذا أقول للرائد حسن إذا ما قُدّر لي أن أعود حياً إلى وحدتنا؟ والآخرون؟ .. أبهذه البساطة تنطفئ الشموع؟!.. يا إلهي.. لو أستطيع تحرير يدي. الألم فظيع.. فظيع.. فوق طاقة الإنسان.. تطلعت حوالي، كان الإيراني الذي أعلن استسلامه ممداً على بعد خطوات مني، وقد انقلبت السيارة على رجليه الاثنتين.. إنهُ ميت.. لكن، لا.. وجهه يختلجُ.. لا بدَّ انه ما يزال في غيبوبة، تلكَ بندقية أحدهم تطايرت قريباً منه:" أيها الإيراني التعس! لو بقيت حياً لأجهزت عليَّ بأعصاب باردة، فمن العدل، إذن، أن أجهز عليك، وأنت هكذا نصف ميت!". امتدت يدي السليمة تبحث عن الرشاش، عندها فقط أدركتُ أن الرشاش قد أضحى تحتَ السيارة المنقلبة.. طفرَ إلى ذهني خاطر مرعب: "لو جاءت دورية إيرانية، ستأسرني لا محالة، مكسور اليد وأسير؟ الموت ولا الأسر يا إلهي".
تذكرتُ نصيحة الملازم صالح لنا في الطريق: " ليحتفظ كل منا بطلقة أخيرة لحالة طارئة: تفحصتُ المسدس، كانت قد بقيت فيه أطلاقة واحدة، فقلت لنفسي: "هذه تكفي!".
حاولت تحرير يدي، لكن آلاماً فظيعة هزتني هزاً، عضضتُ على شفتي فأدميتها.
بدأ الإيراني يفيق من غيبوبته. حملق في السماء بعينين محمرتين، وهو مستلقٍ على ظهره ثم أطلق عواء كعواء الذئب:
ـ خودا!
حاول النهوض مستنداً على كوعيه. لا بدّ انه لا يدرك بأن رجليه لا زالتا تحت السيارة. اجتاحتهُ موجة من الألم الشديد، جعلتهُ يرتدُ برأسهِ إلى الخلفِ. ضرب الأرض بمؤخرة رأسه بهياج، لوْ لمْ تكنْ الأرض رملية رخوة لتهشمت جمجمته. كان ما يزال لا يعي حقيقة ما جرى. سمعتهُ يهذي. ربما كان يُحَدِث أحداً من أهله ، ثم اخذ يئن أنيناً متواصلاً.
آنذاك بدأت قطرات من الدم تنساب من داخل السيارة على وجهي، حينما أدرت رأسي، امتلأت أذني اليسرى بالدم. ما أبشع رائحة الدم البشري!.. شعرتُ بالاشمئزاز، ثارت معدتي. اختلط القيء بالدم..فمي يمتلئ بخليط من القيء والدم

والرمل.. لو مرّت دورية من هنا..! لا أستطيع تحمل كل هذا العذاب شيء كاللهيب يدبُ في نخاع عظامي.. آه .. الحربة! لو كانت في متناول يدي، إذن لقطعت بها يدي الأخرى. لا.. لا .. سأصبرُ.. قد يأتون لنجدتنا!.
نظرت باتجاه الإيراني، كان هو أيضاً قد استدار برأسه نحوي، حين التقت نظراتنا! اصطكت أسنانه في تكشيرة مريعة، شرع يصرخُ ويومئ إليّ برأسهِ كأنهُ يقول: "اقتلني.. اقتلني.. أرجوك-أيها العراقي- اقتلني وانهِ عذابي" أغمضتُ عيني- نسيت آلامي.. يا للفظاعة. لم أشاهد في حياتي قط إنساناً يكشر بهذه البشاعة، ولمْ اسمع من أي إنسان صراخاً مؤلماً كهذا الصراخ.
أشرتُ إليه بيدي رافضاً طلبه. ضربَ جبينه براحة يده ثم أدار وجهه عني بنفور.
شرعتُ أقيس في ذهني المسافة بينه وبين البندقية المرمية إلى جانبه.. إنها بعيدة عن متناول يده.
كانت القذائف تمرق من فوق رؤوسنا، تئز بغضب ثم لا تلبث أن تنفلق في مكان بعيد. قذيفة واحدة تكفي لإنهاء عذابي .. لكنّ القنابل لا تسقط في الأرض الحرام، لا تسقط في الوادي الملعون.. من المحتمل أن نظل، أنا وهو، هكذا مستلقيين واحداً بجنب الآخر إلى أن يقضي علينا الجوع أو العطش أو يأتي حيوان مفترس فينهش لحمنا.
أدار الإيراني رأسه نحوي، وهو يطلق صراخاً هستيرياً. أشار بان أصوب رصاصة إلى جمجمته.
مرة أخرى رفضتُ طلبه: " لو لم تكن جريحاً- أيها الإيراني- لما ترددت في إطلاق النار عليك!".
كانت الشمس قد ارتفعت. تزايدت وطأة الحر. بدأت الرمال تلفح جسدي. كان الإيراني يواصل صراخه.. لا بدَّ وأن عذابه لا يطاق.. ملأت خياشيمي رائحة مقرفة.. الجثث تتفسخُ.. والرائحة الكريهة ستزداد وتزداد.. العطش يقتلني.. رأسي يدور. كل شيء من حولي يبدو ضبابياً، هدوء في هدوء. وإذا كان هذا هو الموت، فلا بدَّ وانه جميل كالحياة.
:" محسن، فاطمة، سعد تعالوا نلعب عسكر و حرامية في الحديقة!".
عندما أفقت من غيبوبتي، علمت أنني كنت احلم، كان الإيراني مستلقياً على ظهره بهدوء.
لعله يظن أني متُّ، فاخذ إلى السكينة: " ابن الكلب سأحطم رأسك" مرقت في سماء الوادي طائرة سمتية. لم يتحرك الإيراني كان وجهه يتصبب عرقاً، فخمنت أنه غارق في غيبوبة. ربما يكون هو الآخر في زيارة أهله الآن.. لفح الشمس.. العطش، الألم، رائحة الدم.. هنا في هذه الصحراء الملعونة قد يفطس الخنزير، كيف بإنسان يتأرجح بين الموت والحياة؟!. عادت الطائرة تحوم فوق المنطقة تململ الإيراني، حرك رأسه باتجاهها، لعلهُ كان يفكر مثلي: " قذيفة واحدة منك-

أيتها السمتية- كفيلة بإنهاء عذابي هذا!". لكن الطائرة مضت، لم تعد بعد ذلك أبداً، قلت معزياً نفسي: " المقاتل لا يفقد الأمل، قد تأتي إحدى مفارزنا - عند حلول الظلام- فتنقذني في الوقت المناسب".
التفت الإيراني وهو يتوسل كالأخرس حاول أن يفهمني قصده بإشارات من يديه:" يريد أن ينتحر، يطلب مني أن ارمي له المسدس، طالما أني ارفض قتله. لم يعد قادراً على تحمل الآلام. أنت تطلب المحال - أيها الإيراني التعس!- الطلقة الأخيرة أثمن ما في جعبة المقاتل. لن أنسى نصيحة الملازم صالح. قد تأتي مفرزة إيرانية فماذا يكون مصيري عندئذ؟ كنْ أكثر شجاعة. كما أن الحديد يغوص ويغوص في ساقيك، فأنه يغوص أيضاً في ساعديّ. نحنُ الاثنان ضحية إيراني جبان فجّر السيارة بمن فيها من الداخل، فحصل ما حصل".
حين قرأ الرفض في وجهي، تمتم ببضع كلمات فارسية. لعله كان يشتمني!..
كانت الشمس آنذاك تنحدر نحو المغيب.

***

حلَّ الظلام تدريجياً..
رغم الظلام كنت أستطيع رؤية الإيراني، السماء تعج بأضوية القذائف. لعلَّ معركة ما تزال تدور في مكان غير بعيد. قواي خائرة، الإيراني يئنُ بوهنٍ دون انقطاع.. بذلتُ جهداً كبيراً للسيطرة على آلامي، تيقظت حواسي كلها. مع تقدم الليل، كانت آلامي تتلاشى شيئاً فشيئاً.. لكن لا! هناك من يتجه نحونا. إنه شبح حيوان مفترس زادته رهبة الليل ضخامة. الشبح ينحدر إلى بطن الوادي. آه إنه ليس رجلاً، بل حيوان مفترس، ضبع، هاهو يتشمم رائحة الإيراني. بعد قليل سيغرز أنيابه في عنقه. سينهش بطنه بمخالبه. سيقتله في لحظة، ويأتي دوري. يا إلهي! .. من أين جاء هذا الوحش المفترس؟.. الضبع.. الضبع حيوان جبان لا يعتاش إلاّ على الجثث. يقتل ضحيته، ويأتي في اليوم الثاني ليأكلها، الموت بهذه الصورة شيء بشع، فجأة بدون سابق إنذار، أطلق الإيراني صرخة مزقت سكون الليل: "هفطيار"(ضبع) بسرعة دون وعي مني، أطلقت رصاصتي الأخيرة، تهاوى الضبع، ارتطم بالسيارة، ثم سقط في منتصف المسافة بيني وبين الإيراني، وهو يطلق عواء الموت. أدار الإيراني رأسه نحوي وهو يتنهد.

المقامة التكريتية

إلى صدام قبل إعدامه..مع الاعتذار الشديد لأهل تكريت وحلاقيها..

كان يا ما كان..
يا سادة يا كرام!
بعد وفاة الرجل المريض، حكم العراف الانكليز.. وسلفاً عن سلف، اتفقوا جميعاً على هدف: نشر الإملاق، في كل البيوت والأسواق. ولتحقيق هذا الهدف، لم يدعوا الأمور تجري بالصدف، كان ديدنهم كسب الأعوان، من كل جهة ومكان، فإذا ما غادروا البلاد، يكونوا قد ضمنوا لعامة الشعب الانقياد.
وعاش في تكريت حلاق، اشتهر بالفجور والنفاق. قال احد كبار الاستعمار، إذا كسبنا الحلاق، فإنه ملاق، وسوف يتحفنا بالأخبار. أخذوا يترددون على ذلك الجبان، ليشذب رؤوسهم، ويحلق شواربهم وهم في غاية الاطمئنان. وكان يعمل في دكان الحلاق ولد، لا يناظره في الوسامة آخر في البلد.. وبمرور الأيام ، مال إليه انكليزي ابن حرام!. وقال الانكليزي في نفسه: "لو أمطرت هذا الحلاق بالنقود - وهو منافق حسود- فإنه لن يرد لي طلباً، وقد يحققُ لي مأرباً!".
شرع الانكليزي يتردد على الدكان في الأسبوع مرتين، ويدفع في كل مرة روبيتين، وهو مبلغ يكفي معيشة عائلتين.
سأل الإنكليزي الحلاق ذات يوم، ولم يكن عندهم أحد من القوم:" إذا بحت لك ما في صدري، فهل تحافظ على سري؟".
أجاب الحلاق: " كيف أستطيع أن اعصي أمرك؟.. بُحْ لي ما في صدرك!"
قال الانكليزي ابن الحرام:" أنت يا حلاق فطين ابن فطين، واعلم أن رغبتي لا تلين!".
بادله الحلاق نظرة بنظرة، وعرف على التو قصده، وقال له باحترام وتؤدة: " يا مستر، مهلا ، مهلا .. ينبغي أن تدفع كثيراً، فما تريده يبدو خطيراً، واعلم أن حصتي هي ضعف حصة الولد، فلو انتشر الخبر في البلد، فالقوم سيقضون علينا لا محالة، وسلاحهم، في مثل هذه الحالة، هو الكالة!". قال ابن الحرام: " أنا للنقود دافع، فهل الولد قانع؟ وأين ترى- يا حلاق- أن تجري الوقائع؟!".
قال الحلاق: " في هذا الدكان، وبكل سور وأمان".
اقفل الحلاق الدكان على الانكليزي والولد وجال جولة قصيرة في البلد.
كان يقابل دكان الحلاق بزاز، اشتهر بالزهد والتقوى بين الناس، وعلم البزازُ بالحقيقة، فقال في سره:"اللهم اكفِنا شرَّ هذه الأعمال الشنيعة..!" وتكرر الحادث وتكرر، وقرر البزاز ألاّ يبوح بالخبر. رجل مثله مسكين.. كيف يستطيع أن يقف في وجه ظالمين؟".
قال الراوي:

يا سادة يا كرام!..
بعد أعوام، قرر الانكليز الانسحاب من العراق بعد أن جعلوه في غاية الإملاق.
قال جهابذتهم:"ابحثوا عن الأعوان في كل زاوية ومكان، فهم جديرون بأن نوليهم من بعدنا الحكم والسلطان". واستقر رأيهم على عدد من المأجورين، ممن لا ذمة لهم ولا دين. استدعوا الحلاق، وقالوا له: " أنت يا صاحب الأخلاق، جدير بأن تكون من سلاطين العراق.. وأين ذلك الولد، فلسوف ننصبه حاكما ً في هذا البلد؟!". وأوصى الانكليز مأجوريهم بنشر الفساد، واضطهاد المخلصين من العباد، ومعاملة الناس معاملة القطيع، وقطع رأس كل ما لا يطيع. وحين تربع السلطان الحلاق على الكرسي، أطمأن لأنه حاكمه ظالم قاس. وهكذا رضي الانكليز بهؤلاء وانسحبوا بعد أن ضمنوا لأنفسهم الولاء.
في أول يوم من الحكم، قرر الحلاق أن يتخلص من كل عدو وخصم.
قال الحلاق: " البزاز يعرف سرنا، وهو يستطيع فضحنا. فليَمتْ مخنوقاً، وليراه الناس مشنوقا !" .. واستدعى الحلاقُ البزاز وقال: " أنت يا بزاز، أنت كثير الابتزاز، وتثير الفرقة وتنشر الشغب بين الناس!".
قال البزاز:" أنا إنسان - ويشهد الله- مستقيم، وعن الحق لا أريم، أغمضت عيني حينما رأيت الفحشاء، وأنت تعرف قصدي يا من جعلك القدر من الوجهاء، فأطلق سراحي، ولا تنكأ جراحي، فلقد تحملت الكثير، وأنا رجل فقير، لا اعرف الابتزاز، ولا شأن لي بإثارة الناس".
قال الحلاق: " أنت، إذن، تعيرني، وبكشف السر تصارحني! خذوه للحاكم، وليكن عبرة لكل قادم!".
أمر الحاكم بشنق البزاز البريء، واتوا له بجلاد دنيء.. وحينما علم البزاز بالحقيقة، وانه لم يبق بينه وبين الموت سوى دقيقة تحسر على مصيره ومصير البلاد، ونظر ملياً إلى وجه الجلاد ثم هتف بصوت حكيم، فيه عبرة لكل فهيم:
لا بارك الله في هؤلاء المستعمرين! قادتهم لواطون، وسلاطينهم قوادون، وحكامهم" منا...".
1982/3/10

القلعة القديمة

إلى الجهة الغربية من قريتنا، وفي مكانٍ غير بعيد، تبدو للناظر بقايا قلعة قديمة. تحت القلعة مباشرة، وفي وادٍ عميق، تظلله أشجار التوت العالية، يقع مزار(الشيخ أبي ريش). قبة المزار مخروطية شاهقة، تبدو في ضوء الشمس بيضاء ناصعة بلون الحليب. آباؤنا يتحدثون عن أفعى معمرة وعمياء تختفي منذ زمن في دهاليز القلعة. الأفعى كبيرة، رأسها مغطى بشعر يشبه شعر البنات.. ويقولون بأن الأفعى لا تغادر القلعة إلا مرة واحدة في السنة، عندما يشتدُّ بها العطش. حينئذ تنحدر من الجبل وهي تطلق صراخاً يشبه صوت المعزى، وبعدما ترتوي تعود ذليلة إلى مخبئها في القلعة.

ظلّت هذه القصة تثير الفضول في نفوس أهل القرية على مدى أجيال.

ذات مرة، في مطلع الربيع، قصدنا- نحن صغار القرية- مزار (الشيخ أبي ريش) . كما يفعل الكبار طفنا حول المزار بقلوب عامرة بالحب والتقدير والإجلال، ولكن فكرة مجيء الأفعى كانت تثير في نفوسنا الفزع. ماذا نفعل لو هاجمتنا الأفعى؟ ومن يعرف متى تخرج من القلعة؟. الأفعى ضخمة بإمكانها ابتلاع ولد. ولكن..لا! يقولون بان الأفعى لا تأكل إلا الخفافيش المعششة في زوايا القلعة.

اقترح احدنا اقتراحاً جريئاً :"لِمَ لا نذهب إلى القلعة لنبحث عن الأفعى؟!".

قبل أن نردَّ على اقتراحه ظهر لنا رجل مسن، طويل القامة، له لحية بيضاء كالقطن.. لم نعرف من هو ذلك الرجل ولا ندري من أين جاء، ولكننا لم نشعر بأي خوف منه. على العكس، شعرنا بالاطمئنان. اقترب منا والابتسامة لا تفارق وجهه المشرق. جلس فوق صخرة قريبة وهو يتمعن في وجوهنا بصمت وهدوء، وأشار إلى القلعة وهو يسألنا بصوت هادئ حنون:

أحقاً تريدون الذهاب إلى القلعة؟ كلا.. كلا.. يا أولادي. إنّ القلعة منحوسة.

تنهد الرجل العجوز، تعلقت أنظارنا بوجهه. هذا الرجل الغريب من أين له أن يعرف سر القلعة؟.. وسمعنا الرجل يقول بنفس اللهجة الرقيقة:

- أتعرفون لماذا؟

لا شك أن الرجل العجوز قد رأى وتعلم الكثير في حياته الطويلة. وسألناه بلهفة:

لماذا؟- يا جدنا- صارت القلعة منحوسة؟ لا بدَّ وانك تعرف أموراً لا نعرفها نحن..!

***

(قال الرجل: اسمعوا يا أولادي.. عاش في هذه البقاع شاب يدعى "سليمان آغا" تزوج فتاة جميلة اسمها "خانم جان").
ورث سليمان آغا عن آبائه مزارع عديدة، وقطعاناً كبيرة من الماشية، إلى جانب الخدم والحشم، وورث عنهم أيضاًالسلطان والجاه.اشتهر بين الناس بطباعه السيئة، فلم يحبُه أحدٌ، ولم يحب هوَ أحداً. أما زوجته خانم جان فقد بلغت حداً من الجمال لا يتصوره العقل. ويُقال بأنه بنى لها تلك القلعة لكي لا تقع على وجهها عين إنسان.. ولكن زوجته أيضاً اشتهرت بالكبرياء والأنانية والغطرسة، فلم يَعُد لجمالها أي أهمية في نظر سائر الناس..
مرّت الأعوام، وانتشرت في القرية إشاعة تقول:" خانم جان" عاقر.
وعندما شعر (سليمان آغا بالحقيقة، اشتدَّ به الحزن. جميع النساء لهن أولاد- حتى الفقيرات منهن- فكيف تبقى زوجته الغنية والجميلة بدون ولد؟!. كلا.. خانم جان يجب أن تلد طفلاً صغيراً مثل الأخريات. سيبذلُ المستحيلَ، سيجوب أطراف الأرض، لن يدع حكيماًولا عرّافاً ولا طبيباً دون أن يستدعيه.
.. لن يسمح لأحد أن يتشفى بزوجته!.
ولكن جميع محاولات سليمان آغا فشلت. ولم تنجب خانم جان له طفلاً.
وعندئذ خطرت له فكرة شريرة. سيستعين بالسحرة، لعلهم ينقذونه من محنته!.
وعاد يجوب أطراف الأرض بحثاًعن السحرة. وقيل بأنه اهتدى إلى ساحرة عجوز تصنع الأعاجيب.
أقامت الساحرةُ في القلعة أياماًعديدة. جرّبت كل أساليب سحرها. أطعمت خانم جان أنواعاً من الحشائش، سقتها صنوفاً غريبة من الشراب. جعلتها تستنشق مختلف الأبخرة، لكن بدون نتيجة. كادت الساحرة أن تستسلم إلى الياس، وأيقنت بأن خانم جان عاقر لا علاج لها.. لو أنها أخبرت سليمان آغا بالحقيقة، لن تخرج حية من القلعة. فكرت في حيلة تنجو بنفسها. أعلنت الساحرة الماكرة، كذباً، أنها توصلت إلى حل. قالت:" إن أكلت خانم جان قلب غزال، صباح كل يوم، لمدة سنة، فإنها ستنجبُ طفلاً.
كاد سليمان آغا أن يطير من شدة الفرح. ما أسهل الحل..!
الغزلانُ كثيرة.
جمع أهل القرية.. أقام لهم وليمة.. تعجبوا. كيف يسمح لهم سليمان آغا بدخول القلعة. وعندما اخبرهم برأي الساحرة: " إن أكلت خانم جان قلب غزال، صباح كل يوم، لمدة سنة، فإنها ستنجبُ طفلاً" عندما أخبرهم بذلك، سيطر عليهم الذهول. غير أنه مضى يوضح لهم: "الأمر سهل. كل فرد منكم يستطيع في كل

يوم أن يصطاد غزالاً" تململ الرجال في أماكنهم غير مصدقين، لكن سليمان آغا مضى يقول بلهجة تنطوي على التهديد:
ـ زوجتي عاقر.. وهذا علاجها!.
احتار أهل القرية في أمرهم. أين يجدون هذا العدد الهائل من الغزلان؟.
ولكي يتجنبوا غضب سليمان آغا بدؤوا رحلة الصيد. في كل صباح يوم جديد يذهب رجل منهم ويصطاد غزالاً. استمروا يطاردون الغزلان في الجبال والسهول ، في الوديان والهضاب، في الغابات والصحارى، وفي كل زاوية وكل بقعة، فتضاءل عدد الغزلان. وفي آخر يوم من السنة عاد أحد الرجال خائباً من رحلته. فقد ظل يبحث طوال النهار دون أن يجد غزالاً. وقيل بأنه دخل القلعة حزيناً. كيف قابله سليمان آغا وماذا قال له؟ لا أحد يعرف. وكل ما يعرفه أهل القرية أن الرجل دخلَ القلعة ولم يخرج منها أبداً.
في اليوم الثاني شاهدوا سليمان آغا يمتطي ظهر فرسه، متوجهاً بنفسه إلى الصيد. انطلق غاضباً يسابق الريح، مبتعداً عن القرية، وقيل أن سرباً من الزنابير أخذ يحوم فوق رأسه. وعند الظهر عثر على غزالة أم ترعى. شهر سليمان آغا سيفه، فانطلقت الغزالة هاربة. صاح بها حانقاً: "أيتها الغزالة توقفي! الهرب لا يفيدكِ. سأطاردكِ حتى نهاية الأرض، فزوجتي العاقر بانتظاري". وقيل بأن الغزالة استمرت تعدو، وقد أحاطت بهاَ أسراب من الفراشات الزاهية.
اتجهت الغزالة نحو قطيع غنم. اندسّت بين القطيع، واختفت تماماً عن أنظاره.
اقترب سليمان آغا من الراعي شاهراً سيفه في وجهه وصاح مهدداً:
ـ أيها الراعي! الغزالة التي أتعبتني اختفت بين غنمك.
ذُعر الراعي. الشر يتطاير من وجه سليمان آغا. ماذا دهاه؟ وعن أي غزالة يتحدثُ؟.. ألقى الراعي نظرة سريعة على قطيعه، يا للعجب..! أسراب وأسراب من الفراشات الزاهية تغطي القطيع، فتحجُبهُ تماماً عن النظر. ووقف الراعي متكئاً على عصاه وهو يقول بهدوء:
ـ أيها الأغا.. هيا! فتش القطيع بنفسك، فأنا حقاً لم أرَ أي غزالة.
نفذ صبر سليمان آغا وهتف:
ـ يا لك من راع أحمق! ألا ترى ما يجري؟ الزنابير تحاصرني، والفراشات تحجبُ القطيع.
وسأله الراعي بسذاجة:
ـ والحل؟؟
ـ الحل؟.. سأقتلك إذا هربتِ الغزالة. فتش عنها. لا تدعها تهرب.
وعندما شعرت الغزالة بإصرار سليمان آغا على قتل الراعي صاحت من وسط القطيع:

ـ لا..لا.. أيها الرجل. لا تقتل الراعي. ما ذنبه هو ليموت بدلاً مني.. سآتي معك.. ولكن بشرط؟.
ردّ سليمان آغا باستهزاء:
ـ قولي لي.. ما هو شرطكِ هذا؟؟
ـ أولادي صغار. وهم الآن بانتظاري. دعني أذهب فأرضعهم لآخر مرة. وأعاهدك على الرجوع. أفعل بي ما تشاء، ولكن لا تقتل الراعي.
اطرق سليمان آغا ثم قال:
ـ وأنا أيضاًلي شرط. أنتِ غزالة أم. أذهبي وارضعي صغارك، وليتعهد لي الراعي برجوعك إلى قلعتي، فإن تأخرتِ عن الموعد لحظة واحدة، سأقطع رقبته بدلاً منك.. فهل يقبل هو بشرطي؟.
قبل الراعي بالشرط، فعاد سليمان آغا إلى قلعته، وانطلقت الغزالة إلى صغارها. أرضعتهم حليباً دافئاً وهي تذرف الدموع. لن ترى صغارها بعد الآن.. وفي طريق عودتها، أسرعت في الركض. لو تأخرتْ قليلاً ً، فإن الراعي المسكين سيموت، وفي أحد المنعطفات، قرب نهر كبير، شاهدت الغزالة حورية تسبح، فقالت في سرها: يا لها من حورية سعيدة! أما أنا فأسير إلى الموت بنفسي". ونادت الحورية الغزالة بفرح: " يا صديقتي الجميلة.. لم لا تأتين لنسبح سوية؟ ما أعذب الماء!" فروت الغزالة لها قصتها المحزنة، ثم انطلقت تركض من جديد. وصلت في الموعد المحدد. بكى الراعي، وقال لها صادقاً وهو يمسح دموعه:
ـ تمنيتُ بألاّ تعودي يا صديقتي العزيزة. فمن الصعب على أن أقودك إلى الموت بنفسي.
ـ وأنا لا أقبلُ أن تموتَ بدلاً عني، فأنت صديقُ الحيوانات في هذه البرية.
وقيل بأن الراعي رفض أن يصطحب الغزالة إلى القلعة، وان الغزالة أصرت أن تذهب بنفسها.. وهنا ظهرت لهما الحورية وهي تلوح بعصا في يدها. وقيل بأنها أبدلت عصاها بعصا الراعي ثم همست في أذنه ببضع كلمات. وعند العصر، حينما رأى أهل القرية الراعي يتجه نحو القلعة، وهو يسوق أمامه غزالة، تملكهم العجب. حتى الراعي! من طلب منه أن يصطاد غزالة فيسوقها إلى الموت؟. وقيل بان الناس شاهدوا الراعي يدخل القلعة بكل هدوء واطمئنان،
وحين رآه سليمان آغا بصحبته الغزالة، كاد يطير من الفرح، ونادى زوجته:
ـ تعالي يا خانم جان انظري..! هذا هو الغزال الأخير، وستنجبين ولداً.
امسك سليمان آغا بالسكين في يده. ارتجفت الغزالة من الخوف، ولكنها ارتمت على الأرض بإذعان. لقد وفت بوعدها مع الراعي فلا يهمها الموت. وحين وضع سليمان آغا سكينه على عنق الغزالة، عاجله الراعي بضربة قوية من عصاه- العصا التي منحتها إياه الحورية- ويقال بأنه تحوّل على الفور إلى خفاش، وظلّ الخفاش يضرب وجه الراعي بجناحيه الضعيفين، وهكذا التصق الريش بجبين

الراعي ولم يفارقه إلى الأبد.. أما خانم جان فقد جُنت حين رأت مصير زوجها التعس، فاندفعت لكي تلتقط السكين.. الغزال الأخير- لو أكلت قلبه، فستنجب طفلاً! إلاّ أن الراعي عاجلها بضربة أقوى، فاستحالت إلى أفعى سوداء.
ويقال بأن أهل القرية دهشوا حين رأوا الراعي يغادر القلعة مع غروب الشمس، ودهشوا حين وجدوا جبينه مكتسياً بالريش. وهكذا سمي الراعي (الشيخ أبا ريش).
وبعد زمن توفي وبنوا فوق ضريحه هذه القبة الجميلة.
انهي الشيخ حكايته ثم انصرف ، تسلق سفح الجبل. شاهدناه يقف عند القمة . لوّح لنا بيده ثم اختفى.

***

عندما رجعنا عند المساء إلى بيوتنا، شرع كل واحد منا يقصّ على أقاربه هذه الحكاية الغريبة. لكن أهلنا لم يصدقوا كلمة واحدة مما حكيناه.. ومع ذلك، ظلَّ أهل القرية جميعاً- وطيلة أسبوع كامل- منهمكين في سلق البيض وصبغه بمختلف الألوان الزاهية، وإعداد أشهى الأطعمة، وجمع باقات من أزهار شقائق النعمان.. وفي الموعد المحدد، في منتصف نيسان، توجهوا مواكبَ مواكب على أنغام المزمار وقرع الطبول ليحتفلوا بطوافة (الشيخ أبي ريش).

1985/6/26

1- القصة مقتبسة عن أسطورة دينية.
2- أبو ريش مزار حقيقي في بعشيقة.
3- الطوافة احتفال ديني ذو طابع شعبي يقيمه الأيزيديون في الربيع حول أضرحة أوليائهم.

القرية المهجورة

لعلّي أجده هذا اليوم.
هكذا كان المتسول العجوز يمني نفسه- كل يوم- منذ أعوام عديدة، وهو ينقاد في شبه إذعان إلى صبي صغير.
وهمس الصغير وهو يتطلع إلى وجه العجوز المتغضن:
إنني جائع يا عم.
لم يجبه العم. إنه هو الآخر جائع. وظلّ الاثنان يشقان طريقهما على رصيف شارع حلب المتدفق بسيل لا نهائي من البشر.. كان الصغير متشبثاً بتلابيب العجوز يجره وراءه على غير هدى وهو ينقل قدميه الحافيتين على ارض الشارع الملتهبة بحرارة الظهيرة في منتصف آب، وكان العجوز يتعقبه بخطوات واهنة ضعيفة، ومن حين إلى آخر يردد بلغته الكردية:
- بو خاترة خدي (في سبيل الله)
وهمس الصغير ثانية:
- إنني جائع.
أجابه العجوز:
- وأنا أيضاً.
وقال الصغير بنفاذ صبر:
- أريد أن آكل!
تريّث قليلاً، فسوف نحصل على الطعام من احد البيوت القريبة، ثم أخلد للصمت.
وأغمض العجوز عينيه نصف إغماضه، ومضى يتحسس طريقه بعصا غليظ ثم عاد يردد في الناس نداءه التقليدي:
- بو خاترة خدي!
وراح يتطلع ببلادة في وجوه المارة وهو يقول في سره "ليتني أجده!". لقد سمع أنه يعيش منذ زمن في الموصل، ذلك الرجل الذي غير مجرى حياته. وإذا قدر له أن يجده؟ سيقول له كلمة واحدة فقط تكون عزاء لحياته الضائعة.. ومرق بالقرب منه رجل يمشي في اعتداد شديد فهمس لنفسه:" إنه هو!" وكاد يمسك به، لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة وهو يقول:" لا.. ليس هو. آه! أنا سأتعرف عليك يا علي آغا حتى لو كنت بين مليون إنسان". وشرع يتفحص المارة خلسة غير آبه إلى اشمئزازهم من منظره الكريه.
ومضى يردد بنبرة أقوى:
- بو خاترة خدي.
وهمس الصغير بضراعة:

- إني جائع جداً.
..فاحت رائحة الشواء من مطعم قريب. وكظم العجوز رغبته جامحة في الحصول على وجبة طعام لذيذة.. وتوقف الصغير لحظة ليتطلع إلى داخل المطعم، لكزه العجوز فمشى وهو ما يزال يتطلع، في نصف استدارة، إلى داخل المطعم، وقد اكتسى وجه بمسحة من خيبة الأمل.. واعترضا سبيل امرأة مكتنزة في الأربعين من عمرها، إلاّ أن المرأة حدجتهما بنظرة استياء بالغة، لكنها ما لبثت أن ألقت قطعة نقود في الصحن، ثم مضت في طريقها.
استفسر العجوز من الصغير:
- كم قطعة جمعنا؟
أجابه الصغير:
- خمس قطع فقط.
عاد العجوز يفكر مع نفسه: لقد سلخ أعواماً من عمره في هذه المهنة التافهة التي لا تحتاج إلاّ إلى خبرة قليلة، لكنه لم يتقن أبسط قواعدها. إنه متسول فاشل إلى أقصى حد. فهو لا يعرف متى يقول الكلمة المناسبة في الوقت المناسب للمسنين. وهو يجوب يومياً معظم شوارع المدينة لكنه لا يكاد يعرف من أين يبتدئ ولا أين ينتهي.. وحظه من اللغة العربية؟ أتعس! شبان المقاهي يشاكسونه كل يوم لكي ينطق ببضع كلمات فيقول لهم برطانة المعهودة: آني عربي نزانم.. ولذلك فإنه لا يكاد يحصل في معظم الأوقات على ما يسد رمقه ورمق الصغير. واليوم، قد انتصف النهار، إلاّ أنه لم يحصل على أكثر من ثلاثين فلسا . والصغير جائع. وهو أيضاً جائع. فماذا يفعل؟
مضى يردد بإيقاع رتيب:
- بو خاترة خدي!
وتطلع إليه الصغير وقال باحتجاج:
- إني جائع.. جائع..
وأجابه ببرود:
- أصبر.. سنحصل على الطعام.
في نهاية شارع حلب انعطف الصغير نحو الساحة ميماً باتجاه الدواسة، والعجوز من ورائه يجر جسمه بتثاقل. ومرّا بقرب محطة بنزين. كان الجوع ينهش أحشاءهما.. ثم انحرفا إلى شارع نظيف مظلل بالأشجار الباسقة، تصطف على جانبيه قصور فخمة ملونة من آخر طراز.
ردد المتسول بفتور:
- بو خاترة خدي.
ذكره الصغير بجوعه مرة أخرى. كان عدد المارة قد قلَّ كثيراً، وتضاءل أملهما في الحصول على أي منحة نقدية. عندئذ توقفا أمام باب كبير اصفر. ألقى العجوز

بكيسه المتسخ على الأرض، وهو يعلل نفسه بالحصول على الطعام من ذلك القصر الفخم. بعد تردد قليل امتدت يده لتضغط على الجرس بأصابع متشنجة قاسية فتح الباب رجل في أواسط العمر، يعلو جسمه رأس كبير، بادره العجوز قائلاً بتوسل دون أن ينظر إليه مباشرة:

ـ قليلاً من الخبز نحن جائعان.

احتقن وجه الرجل بالغضب، وصرخ بلهجة كردية سليمة، وهو يصفق الباب في وجهيهما:

ـ لا يوجد!

..تناهى إلى سمع العجوز صوت الرجل يصب في سخط شديد آلاف اللعنات على أولئك المتسولين التعساء الذين يزعجون الناس في أوقات راحتهم. وظلت عينا العجوز متعلقتين بقضبان الباب الحديدي. كاد ينسى جوعه، وتشرده، وذله، إذ انصرف ذهنه إلى الماضي البعيد ليستعيد صورة الرجل الأصلية. وقال بذهول:

ـ إنه هو!

استفسر الصغير:

ـ من تقصد؟

ـ علي آغا. الرجل الذي طالما بحثتُ عنه.

ـ أتعرفه؟

ـ بالتأكيد.

ـ وهل يعرفك هو أيضاً؟

ـ نعم. إذا كنت في غير هيأتي هذه.

ـ إذن. لماذا لم يمنحنا خبزا ؟

ـ إنه لا يعطي. تعود أن يأخذ فقط.

ـ يأخذ ماذا؟ أتعني أنه متسول مثلنا؟!

ـ أتعس.

ـ لكنه غني..؟

ـ أجل..

ـ لعله يمنحنا الخبز ما دمت تعرفه. لم لا نسأله ثانية؟ هز العجوز رأسه في أسى. وقال بحسرة:

ـ خبزه سام.

***

مضيا يائسين إلى الرصيف المجاور. في ظل سياج (حديقة الشهداء) كان ثمة مشرد آخر شاب مستلق في الظل. لوى المشرد رقبته، وتطلع إليهما في صمت ثم عاود النوم من جديد. أنطرح الصغير على الأرض حتى التصق وجهه بإسفلت الشارع، ومضى في إغفاءة قصيرة بعدما فقد الأمل في الحصول على أي طعام.

اتكأ العجوز على كيسه المليء بالحاجيات القذرة، ثم تعلقت أنظاره بباب القصر الذي طردهما صاحبه مثلما يطرد الكلاب الضالة. وغرق في التفكير:
إنه هو. عي آغا بعينه. لست مخطئاً. نفس القامة المربوعة. والرأس الضخم كرأس الخنزير، ثم تلك الشامة السوداء على أذنه اليسرى؟ وذلك الجرح الغائر في ذقنه؟ إنه هو بعينه! آه.. يا ابن العاهرة. عثرت عليك أخيراً، ولسوف أصفي معك الحساب القديم.
وقطع عليه تفكيره رنين قطعة ألقت بها في الصحن عجوز شمطاء تتشحُ بالسواد. تطلع العجوز في وجه الصغير الذابل. وقرع أذنيه دوي منبه سيارة في الشارع المجاور.. تعلقت أنظاره ثانية بالباب الحديدي الأصفر. عبثاً يأمل في أن يرى الرجل ثانية في ذلك الوقت القائظ من النهار. لكن.. لماذا؟؟ إنه هو. بلحمه وشحمه. وليس ثمة داع إلى مزيد من الأدلة. وتمتم:
ـ أنا لا أقل عنك وضاعة يا ابن الكلبة، ولكني عجوز واهن مجرد من كل سلاح.
..عادت به الذاكرة إلى الماضي البعيد. واستيقظت في أعماقه ذكريات نصف قرن. وفي غمرة الذكريات المحزنة شعر بمزيد من التعاسة والشقاء. أختلس نظرة أخرى إلى الصغير الذي نام خاوي البطن. نظر إلى هيأته المزرية القبيحة وتحسر. ما الذي يأمله من حياته البشعة تلك؟ ولكن.. الصغير؟ أيستطيع أن يتسول وحده؟ ولماذا؟.. كانوا سيعيشون إلى الأبد في عز ورخاء وسلام لو لم يعترض طريقهم ذلك الشرير علي آغا. وطفر إلى ذهنه خاطر مفاجئ:
ـ من العدل أن انهي حياتك يا علي آغا علناً أمام الناس وفي عرض الشارع.
استيقظ الصغير فرك عينيه، وقال بضراعة:
ـ إنني جائع!
نهض المشرد الشاب، اخرج من كيسه رغيفاً من الخبز، ثم استلقى بجانبهما وهو يقول:
ـ هذا الرغيف زائد عن حاجتي. لقد تناولت طعامي . يستطيع الصغير أن يأكله.
تمتم العجوز ببضع كلمات امتنان، ثم سأله:
ـ ما الذي تفعله أنت هنا؟
أجابه الشاب:
ـ أمضي وقتي.
لماذا؟
ـ لأني مشرد. فقد طردني صاحب العمل منذ أسبوع. كنت اعمل موزعاً للصمون في احد الأفران الكبيرة، لكن صاحب العمل فصلني زاعماً بأني واحد من المشاغبين الذين لا يرغب فيهم.
وبعد لحظة صمت:
ـ كم كان فظاً قاسياً!

سأله المتسول العجوز:
ـ لمَ لا تبحث لك عن عمل آخر؟
ـ إني سقط اليد. وكل الأعمال لا تلائمني.
سأله العجوز:
ـ من يكون صاحب ذلك القصر ذي البوابة الصفراء؟
ـ علي آغا.
وسال العجوز بإلحاح هذه المرة:
ـ من هو علي آغا هذا؟
ـ صاحب العمل الذي طردني، وهو احد النواب السابقين. يقولون عنه أنه من شخصيات المدينة، ويمتلك عدة شركات، في الحقيقة أحط من كلب لأنه يحتقر الفقراء.
حك العجوز رأسه وقال:
ـ يوجد أثر جرح على فكه، وشامة كبيرة على أذنه. أليس كذلك؟
ـ بالضبط.
ـ أتعرف من أين جاء إلى المدينة؟
حملق الشاب المشرد في وجه الجوز باستغراب وقال:
ـ إقطاعي انحدر إلى المدينة من أحدى قرى الشمال.
عندئذ قال العجوز بنزق وهو يتحسس عصاه:
ـ لقد نويت أن انهي حياة هذا السافل علي آغا!
قهقه المشرد ثم قال ساخراً وهو يغمز بعينه:
لأنه طردك.. هه؟
ـ كلا!
ـ لماذا إذن؟
ـ هذه فكرة ظلت تراود ذهني أعواماً عديدة..
ـ أنت مجنون.. أنت عجوز خرف. أنت لا تستطيع أن تقترب منه، والذين يحرسونه سيسحقونك مثل حشرة قذرة.
قال العجوز بإصرار:
ـ قراري هذا قديم! ولكن..
قاطعه المشرد قائلاً بحزم:
ـ تريد أن تقتله ومتى؟ اليوم . حسن.. هناك من يفكر بقتله ولكن المشكلة تكمن في القوة الجبارة التي تحرسه.
ـ لا أرى أمام قصره أي حرس.
ـ أنت عجوز لا يمكن أن ترى شيئاً!

سرح المشرد الشاب بأنظاره بعيداً، كأنما يستعيد في ذهنه ذكريات محزنة وتنهد. ثم استطرد يقول:
ـ علي آغا رمز للشر والجريمة. مصاص للدماء. لقد حطم عوائل كثيرة. وسرح من العمال دون أي سبب.
قال بذهول:
ـ عمن تتحدث؟
..فجأة أخفى العجوز رأسه بين يديه ثم انخرط في بكاء مر صامت.. أخذت الدموع تنساب غزيرة في تجاعيد وجهه كما تنساب المياه في الأرض المحروقة. وظل الصغير صامتاً يراقب الرجلين بفتور وهو يلوك آخر قطعة تبقت لديه من الخبز. تطلع الشاب المشرد في حيرة إلى العجوز المتهدم. ما الذي يبكيه؟ هذا الإنسان المسخ كأنه عاش أبداً في وسط دخان. أجفانه غليظة محمرة بلون الدم. وجهه بشع مقرف تعلوه آلاف الثنايا والتجاعيد يتوسطه انف مقوس كبير. والرقبة متهدلة كخرطوم المياه القذرة. كومة من الأقذار والأسمال المزنخة. ما الذي يبكيه؟ وسأله الشاب برفق:
ـ ما الذي يبكيك؟
ـ علي آغا!
ـ لكنك أنكرته قبل فترة.
ـ اعرف علي آغا الآخر.
ـ ماذا تقصد؟ أنت مجنون.
ـ كلا..كلا.. لقد تحطمت عائلتي، وتشرد أهل قريتي، وضاعت أرضنا بسبب علي آغا .. وبسببي أنا أيضاً..
ـ لكن الأرض بدأت ترجع إلى أصحابها . الم تسمع ؟
ـ ما الفائدة بالنسبة لي؟ لقد ضاع كل شيء.
وحدجه الشاب باستغراب مرة أخرى وقال:
ـ عدت إلى جنونك.
على أن العجوز مضى يتحسس عصاه. وقال برعونة:
ـ سأنهي حياته هذا اليوم.
حدجه الشاب بنظرة استياء كما لو كان ينظر إلى علي آغا نفسه. ثم قال يحذره مرة أخرى:
ـ أنت واهم.. القوة التي تحرسه لا تنام لها عين لأنها تعرف بأنه معرض للخطر على الدوام.
ـ لكن لابد من معاقبة المجرمين.
ـ دعه. أعداؤه كثيرون. والزمن كفيل بمعاقبته.
وشرد ذهن العجوز وتمتم:

ـ لن أدعه. يجب ألاّ تضيع الحقيقة التي طالما ظلت طي الكتمان. علي آغا مجرم، وأنا شريكه في الجريمة، لكني نلت عقابي في هذه الحياة العفنة التي عشتها. أما هو فلم ينل عقابه. أنا شريكه في الجريمة، وضعت نفسي طوع أمره، وساهمت معه في تخريب القرية وتشريد أهلها، أنا لا اقل عنه سفالة.. آه.. المجرم، أو تدري كيف أشعل النيران في القرية الآمنة؟ كان ذلك منذ زمن طويل جداً عندما وفد على قريتنا لاجئاً بعدما طرده أبوه لأسباب خاصة. وبعد أن كسب ود الأكثرية بتزلفه وتململه اخذ يثير الفتن بين الأقارب، وذات مرة استغل النزاع بين فريقين من الفلاحين تنازعا حول قطعة من الأرض، وأقنعني أن أطلق النار على رجل معين ينتمي إلى إحدى الطائفتين المتنازعتين في سبيل مصلحتنا، أنا وهو، آه..ما زلت أتذكر كل شيء وكأنه حدث بالأمس، كان العم احمد منكباً على حذاء قديم يصلحه على ضوء فانوس، ومن كوة الحائط أطلقت عليه النار، انطفأ وانتهى الرجل، احتدم الصراع بين الطرفين ورحلوا جميعاً عن القرية حقناً للدماء، كانت خطة سافلة لم تنكشف حتى اليوم.. على أن ظنون معلم القرية اتجهت نحونا، فاغتاله علي آغا ذات ليلة عاصفة من ليالي الشتاء، وضمت غياهب السجون أربعة شبان أبرياء من القرية، وبدأت نذر الشؤم تلوح في الأفق، وقلق أهل القرية على أنفسهم وحاولوا طرد علي آغا من القرية، وكان يقودهم ملا خليل، وأقنعني المجرم بقتله لقاء منحي قطعة ارض ثمينة.. وقتلته.. ثم انهارت معنويات الفلاحين وتفرقوا في أطراف الأرض شذر مذر لائذين بجلودهم كقطيع من الغزلان يطارده ذئب جائع.

أجهش العجوز كرة أخرى في البكاء وهو يردد:

كان ذلك منذ زمن طويل، لكنه خدعني، خدَعني، وجَهَ ضربته الأخيرة لعائلتي فتحطمت.

وبعد فترة صمت:

ـ الويل لأبن الزانية.

هبت من الحديقة نسمة منعشة، ودق ناقوس كنيسة قريبة، تعلقت أنظار العجوز بالبوابة الحديدية الصفراء، وقال:

ـ منذ ذلك الوقت وأنا ابحث عنه، حتى وجدته اليوم، ولا بد من تصفية الحساب القديم معه.

قال الشاب محاولاً تهدئته:

ـ علي آغا هو..هو، تحكم في مصيركم بالأمس، ويتحكم بمصيرنا اليوم، وغداً سيزول كأن لم يكن، حتى أقوى السدود ينهار يوماً ما وتجرف أحجاره السيول المتدفقة في الربيع.

نظر الشاب إلى الشارع في أقصى اليسار من الحديقة، وانتصب على قدميه. ثم قال بهدوء: لنمضِ.. لنمضِ كل في سبيله. لقد خفت حدة الحر، وبدأ الناس يخرجون إلى الشوارع.

استند العجوز بظهره غلى سياج (حديقة الشهداء)، ومدَّ رجليه على عرض الرصيف. وداعب عصاه، ثم قال بإصرار:
ـ أنا لن امضي، لا بد من تصفية الحساب معه.
حذره الشاب مرة أخرى:
ـ أنت تتخبط سيسحقونك مثل حشرة أنت وحدك لا تستطيع أن تفعل شيئاً خير لك أن تمضي معنا.
ـ دعني وشأني.. فليكن ما يكون.
ـ والصغير ما ذنبه؟
صمت العجوز.. وكرر الشاب سؤاله:
ـ ما ذنب الصغير؟
ـ لا ادري.
وفكر الشاب قليلاً ثم قال:
ـ سآخذ الصغير معي. ما ذنبه لكي يبقى جالساً معك، مشدوداً إلى الأرض؟ هه.. ماذا تقول؟
وسحب يد الصغير وهو يقول:
ـ سآخذه .. ألا ترافقنا؟
أجاب العجوز بإصرار:
ـ سأبقى حيث أنا ولن أرافق أحدا .
انحدرت الشمس نحو المغيب، وزحفت ظلال الأشجار باتجاه القصر، وخرج الناس من دورهم إلى الشوارع، وعج شارع الحرية، الكائن إلى اليسار من حديقة الشهداء بسيل لا نهائي من البشر.. وأما علي آغا فكان يغط في نوم عميق في قصره الفخم، ذي البوابة الحديدية الصفراء، كانت الستائر مسدلة على الشبابيك والمروحة فوق رأسه تدور بدون ضجة، وإلى جانبه كأس شراب فارغ، ومن فرجة بين الستائر تسلل شعاع اصفر إلى الغرفة مؤذناً بانتهاء النهار، وأفاق الرجل من نومه مضطرباً، أدرك بأنه قد تأخر أكثر مما ينبغي، نظر من شباك في يمينه إلى الشمس الغاربة، فأعشى عينيه شعاع اصفر ذهبي ساطع، احكم وضع الستائر وهو يلعن الأضوية الساطعة.

***

تحسس العجوز عصاه بشوق وهو يرمق الشاب والصغير وهما يقفان في بداية الشارع. ثم رآهما يغيبان في السيل البشري المتدفق على طول الشارع.

بحزاني في 1969/5/6

معركة أخرى خاسرة

سأقلع عن التدخين..
ألا تصدقوني؟! إنني جاد في هذه المرة، ولن أدخن أي سيكارة اعتباراً من صباح الغد.. أي يوم يصادف غداً؟ الأحد؟ حسن. إذن ستكون ساعة الصفر صباح الأحد.
وبعدها سأحطم خصمي العنيد الذي ظل يصارعني طيلة ربع قرن من الزمان.
نحن الآن في يوم السبت. الوقت صباحاً. وحتى تحين ساعة الصفر العظيمة سأصفي بعض الحسابات القديمة مع عدوي الغادر.
اعترف لكم بأني خضت ضده معارك عديدة كان الفشل نصيبي في جميعها، لكني موقن اشد اليقين بأني سأحقق النصر في المعركة المقبلة.
ومنذ الآن سأتهيأ للمعركة، معتمدا على ستراتيج جديد لم اتبعه في أية معركة سابقة. لقد أجريت تحليلاً لأخطائي التي جرت عليّ الفشل فوضح لي إني كنت ابتدأ بداية خاطئة، والبداية الخاطئة تؤدي إلى نتائج خاطئة، والعكس صحيح.
والعاقل من استفاد من أخطائه.
متى دخنتُ السيكارة الأولى؟ الحقيقة أني لا أتذكر ذلك بالضبط، كل ما أتذكره أني دخنتُ لأول مرة وأنا طفل ساذج.
وماذا كانت الدوافع؟ لا أدري بالضبط. ربما كانت محاولة مني لتقليد الكبار بدافع من اقران السوء.. وعلى أي حال فقد ابتدأت التجربة في السر خوفاً من بطش أبي. ثم زين لي جموع المراهقة- بعد أعوام- أن اظهر امام الملأ وبين شفتي سيكارة انفث دخانها برضا وسرور متبختراً كالطاووس، متنقلاً هنا وهناك في زهو وكبرياء.

ضبطني أبي!
.. وانتم تعرفون ما حدث، زادني العقاب إصراراً على مواصلة التجربة، لماذا يمنعني ابي من التدخين؟ كل الناس يدخنون، والمسألة ضرورة من ضرورات الحياة مثل الأكل والشراب والدراسة، وأبي أيضاً ربما يكون جدي قد منعه عبثاً عن التدخين، لكنه اليوم يدخن رغم نصائح جدي له.. آه.. لو يعلم أبي كم إني مغرم بالتدخين، فالناس ينظرون إليّ نظرتهم إلى رجل عندما يرون السيكارة في فمي، والتدخين يساعدني على تركيز أفكاري وقت الدراسة.. التدخين أفضل لجام عند الغضب، وأفضل سمير في وقت الفرح، التدخين وسيلة ناجحة للتعارف بين الأغراب. وواسطة للتغازل مع الاحباب..
فلمَ يلمني أبي؟ ولمَ يمنعني؟ إن لم أدخن في صغري فسوف أدخن حتماً في كبري، فلمَ يلمني أبي؟ ولم يمنعني؟ لِمَ ؟.
.. استمرت مطاردة أبي لي أعواماً عديدة، ثم يأس، واذن لي أن ادخن علناً متى أشاء.
جرفني تيار الحياة، ووجدتني أصارع الأمواج الصاخبة، وبدأت آرائي تتغير وتتبلور.
شرعتُ انظر للأمور نظرة واقعية، نظرة رجل حنكته تجارب مرة قاسية، عندئذ فقط ادركت ان أبي كان على صواب. وبدأ الألم يحز في نفسي.. أليس من العار أن يستمر الإنسان على الخطأ؟ ما قيمة السيكارة؟ لماذا لا يمكن الاستغناء عنها؟ إن الذي لا يقهر نوازع السوء الصغيرة في نفسه لا يمكن ان يحقق الامال العظيمة..
بهذه المعنوية شرعت أفكر بالكف عن التدخين لأول مرة، باعتبار التدخين رذيلة اجتماعية.. وكنت يومئذ صارماً في انتقاد الذات، حريصاً على تنفيذ اية فكرة تخطر على بالي بدقة متناهية.
.. ويا للأسف... فشلت المحاولة الأولى بعد تنفيذها بوقت قصير، وشرعت أدخن بنهم اكبر من السابق، وعدت أناقش نفسي مرة أخرى: هل قطع التدخين صعب إلى هذا الحد؟ لا.. مطلقاً. أنها مسألة إرادة لا غير، وأنا لستُ ضعيف الإرادة ما في ذلك شك، سأحاول.
وفشل المحاولة لن يثنيني عن عزمي، سأعيدها مرة اخرى.
تذكرت قصة القائد المغلوب والنملة.
تهيأت لجولة ثانية وفشلتُ.
.. فشلت في جولة أخرى وأخرى وأخرى، حتى لم يعد بإمكاني أن اتذكر عدد مرات فشلي، واستمرأت لذة الفشل، وأيقنتُ أن في الفشل لذة لا تقل عن لذة النجاح ابداً.
ومرت أعوام..

وفي كل عام كنت اظن أن المعجزة ستتحقق، واني لا بد من أن أحطم الوحش المجنون الذي استعبدني طويلاً.
قررت أن اخوض غمار معركة اخرى، مستفيداً من خبرة الآخرين، ومستعينا بتجاربي الشخصية.
ناقشت نفسي من جديد، لابد من عمل حاسم فقد بدأت تظهر أعراض جانبية كما يقول الأطباء، فالتدخين يستنزف جزءاً غير يسير من ميزانيتي، وانا اسعل بشكل مقرف كأنني شيخ في السبعين من عمره، ماذا قال الطبيب؟ التهاب قصبات؟! آه.. عزائي انه التهاب بسيط لا ضرر منه.. ولثتي ملتهبة أيضاً، وقد دب التسوس في أسناني الصفراء، لكم أصبحت مهملاً.. يبدو أن الدخان صار يبلد ذهني بَدَلاً من أن أن يشحذه، اجل، وإلاّ كيف ارمي أعقاب السيكاير في أركان المنزل بدلاً من أن إطفائها في المنفضة التي بجانبي؟ لقد احرقت ذات مرة بدلة جديدة أول ما لبستها. وهذه أصابعين صفراء لحد القذارة..
والانكى من كل شيء أن ابني الصغير(خليل) بدأ يسرق مني السيكاير وهو بعد في السادسة من عمره. لقد ضبطته يدخن.. وغضبتُ وارتفعت يدي في الهواء لتنال على وجهه في صفعة قوية، لكني عدلت أخيراً ، فإن العقاب لا يفيد، ينبغي أن اقطع عليه الطريق، الاّ أدع أي سيكارة في متناول يده، ولكن كيف يتسنى ذلك؟ ينبغي أن اقلع عن التدخين فلا تقع اية سيكارة في متناول الصغير.
...فليتحطم الصنم الذي عبدته طويلاً. ولتبدأ معركة جديدة. ولنر لمن يكون النصر.
شرعت اهيء كل مستلزمات المعركة المقبلة، محاولا عدم الوقوع في أي خطأ من الأخطاء السابقة. اخبرت بعض الأصدقاء بعزمي، فابتسموا ساخرين، واخبرت زوجتي بالموضوع، وطلبت منها أن تشتري مقدماً كل حاجيات الغذ، لأنه قد يفرض منع التجول، ففغرت فمها دهشةن وعند ئذ أوضحت لها:
لن يحدث أي انقلاب يا عزيزتي.
وبلباقة شرحتُ لها مشروعي، وهو البقاء في المنزل يوماً كاملاً ن وعدم السماح لي شخص بالدخول إليه ايضاً، فتبسمت ساخرة، ثم أردفت تقول:
ـ لا باس.. لعلك تنجح في إحدى محاولاتك.
واوضحت لها بالتفصيل أدق المور في معركتي المقبلة، فوعدتني بأنها ستبذل من جانبها أقصى الجهود في سبيل تحقيق أمنيتي. وأمضينا ساعة نتناقش. ثم حل المساء، فشرعت أدخن سيكارة في أثر سيكارة حتى انتصف الليل... عندئذ سحقت جميع ما تبقى لدي من سيكاير، والقيتها إلى الزقاق من النافذة، مؤذناً بافتتاح المعركة.
وبعد أن تناولت فطوري في الصباح لاحت بوادر الأزمة... شعرتُ بالدوار يعصف برأسي، كأنني رائد فضاء يسبح في مجال انعدام الجاذبية، قاومت هذه

الأعراض المزعجة بشجاعة دون أن انبس بكلمة، لكني في قراة نفسي كنت على استعداد كامل أن ادفع ديناراً كاملاً في سبيل سيكارة واحدة، بل كنت على استعداد لأن اضحي بسنة من عمري لقاء نفس واحد من الدخان. وخطر أن اعلق فوق الباب لا فتة:" ممنوع الدخول والخروج". ثم ارتأيت أن امضي تلك السويعات المزعجة بالمطالعة. واخترت أحب قصة إلى نفسي، اخترت قصة بعنوان(عناقيد الغضب) وشرعت أقرأ فصلا معينا طالما اهاج في نفسي أعمق الحاسيس افنسانية. لكني لم افقه شيئاً مما قرأتُ. ثم تناولت مجلة رخيصة حافلة بصور بغايا عاريات باسم الفن. ثم القيتها جانباً هي الأخرى.
.. وأحسستُ بما يشبه الظمأ. وتجرعتُ كأسين مترعين من الماء دون أن يزايلني ذلك الإحساس. ثم شعرت بالنعاس، غير إني لم استطع النوم.. وشعرت بأعراض غريبة كتلك التي يشعر بها مريض مصاب بهبوط في الضغط.
وانتابني حالة من اليأس والفجيعة والقنوط دون أي مبرر.. هل ثمة شيء افتقدته؟ لكن الباب موصد، وعليَّ أن أقاوم. ثم تمددتُ ورحتُ في إغفاءة قصيرة. وعندما استيقظت امتدت يدي بطريقة ميكانسكية لتبحث عن علبة السكائر تحت الوسادة.. يا لخيبة الأمل! قررت بعد ذلك أن اتمشى على السطح لتمضية فترة هي أتعس من الفترة التي يمضيها المتهم قبل صدور الحكم عليه. صعدت إلى السطح. يا لهول ما رايتُ!! كان ابني(خليل) قابعا في أحد الأركان وبين أصابعه سيكارة يدفع بها في فمه غلى اقصى حد ممكن، وقد انتفخت أوداجه ودمعت عيناه. ورأيت لعابه يسيل.. انقضضت عليه كالبرق وانتزعن منه السيكارة، وامتصيت منها انفاساً عميقة متلاحقة، وعصف بي الدوار كرة اخرى، لكني تمالكت نفسي وصرخت في وجهه بغضب:
ـ هيه ايها العفريت. قل لي من اين حصلت على هذه السيكارة؟ رفع إلي وجهاً مذعوراً، فكررت عليه قولي:
ـ لن اضربك. قل لي كيف حصلت على سيكارتك في هذا الحصار الجهنمي المفروض على البيت؟! دون ان ينبس بكلمة انتصب واقفاً، وتطلع حواليه بارتباك شديد ثم مضى إلى احد الركان، وازاح حجراً عن حجر، ثم سحب قبضة من مختلف انواع السكائر كان قد سرقها مني في فترات متباعدة.. صادرت السكائر المهربة، وصرخت به وأنا أقطب ما بين حاجبيَّ
ـ لا تحاول أن تسرقني ثانية!
واجاب متلعثماً
ـ لا يا ابي.
واقبلت زوجتي على صراخي، فوقفت مندهشة وهي تتمعن بذهول في سحب الدخان المعقودة فوق رأسي. والحق غني شعرت بالخجل والارتباك ثم شرحت لها الموضوع باختصار، فقالت بعطف:

ـ عبثاً تتعب نفسك كل مرة.
أجبتها على الفور:
ـ خسرت معركة أخرى يا عزيزتي ، ولم أخسر الحرب.
بحزاني في1969/5/20

آثار على الثلج

سحابة من دخان المدافئ الخشبية تنعقد فوق قرية (بوزان) ، فالبرد شديد ومن الشمال تهب رياح شتوية قارصة تلسع الجلد.. وتحت احد الجدران- في مواجهة شمس المغيب- قرفصَ جمع من الفلاحين يسعلون، ويثرثرون، ويدخنون وعندما اقبل عليهم العم(عبد الرحمن حسن) واخبرهم بأنه لم يبق في بيته سوى أرزاق يوم واحد، هزوا رؤوسهم في أسى وحيرة.. ما الذي يستطيعون أن يفعلوه له؟ فالجوع يهدد الجميع، لأن الموسم الزراعي المنصرم كان مجدباً.. عندئذ ذكر لهم بأن في نيته الذهاب غداً إلى الجبل للاحتطاب، فالحطب يباع بثمن جيد في مركز قضاء(الشيخان). لكن الرجال نظروا إليه بتعجب واستغراب كأنهم ينظرون إلى معتوه. وقال شيخ طاعن في السن:

- الذهاب إلى الجبل - في هذا الوقت- يعني الموت.

وبعد تفكير أجابه العم عبد الرحمن حسن بهدوء:

- الموت أهون من الجوع.

***

... قبيل فجر اليوم التالي امتطى حماره الفحمي، شرع يوجهه بحذر شديد في وادٍ عميق ينتهي بسفح جبل هكَار، كان البرد قارصاً يلسعُ جلده بقسوةٍ، من حوله كانت ظلمة رمادية كثيفة تلف الكائنات بأجمعها.. في الأفق الشرقي بدأت تلوح له بوضوح هالة فضيّة رقيقة. همسَ:

- هاهو الفجر يقترب.

الطريق من حوله محفوفة بالخطر، قد يؤدي ابسط خطأ من جانبه إلى انهيال الرصاص على رأسه كالمطر. لكنه يعرف الطريق شبراً شبراً، أفضل من معرفته لراحة يده. لذلك قرر أن يجتازه في وقت مبكر من الليل تحت جنح الظلام.. ظل يصغي بانتباه بالغ إلى وقع حوافر الحمار على الأرض الصخرية القاسية. بيد أن الضجّة كانت تضيع في خضم زمجرة المياه الغاضبة المتدفقة بين الصخور الجبلية الناتئة.. هاهو الفجر. بدأت الهالة الفضية تلوح له بلون أرجواني. طرقت أذنيه زقزقة الزرازير المتزاحمة على شجيرات العوسج.. إلى يساره في وسط الوادي انتصبت أشجار الحور والصفصاف بكآبة كأشباح حزينة.. مرق أمامه فجأة من بين الدغل أرنب مذعور أجفل الحمار. عندئذ ترجل الفلاح، بصق على الأرض وهو يقول:

- الأرنب فأل سيء لكن الأمور بيد الله!

مضى يسوق الحمار بحذر أشد . لاحت له الهضبة إلى جهة الشرق، توقف قليلاً ثم أمعن النظر خلال الظلمة الكثيفة وهو يهمس:
- هؤلاء هم.
عاود السير مرة أخرى، امتلأت خياشيمه بعبير الأخشاب المبتلة. رأى الدائرة الأرجوانية في الأفق الشرقي تزداد اتساعاً فخاطب نفسه:
- لقد خرجت متأخراً بعض الوقت، لكني اجتزت منطقة الخطر على أي حال. قد أبلغ الجبل قبيل بزوغ الشمس.
امتطى حماره ثانية شرع يسوقه بحذر أقل... ثم انحرف الطريق عن الوادي إلى سهل منبسط. أحنى الحمار رقبته ليلتهم قبضة من الحشائش.
- الآن صرت بعيداً عن الجُند. حتى لو أطلقوا النيران فإني في مأمن من شرهم سأصل الجبل قريباً.
بدأ الفجر يزحف بسرعة، لاحت له الكائنات بلون رصاصي. تناهت إلى أسماعه زقزقة الطيور تغني بجذل للفجر من مخابئها في الدغل مؤذنة بطلوع نهار جديد. أصغى إليها في نشوى، وهو يحمي كفيه بين طيات ملابسه من لسع هواء الفجر البارد، عندما أشرقت الشمس كان قد بلغ قمة الجبل.. في منعطف الطريق بذل الحيوان محاولة أخرى لقضم قبضة من الكلأ فتركه قرفص بجانب شجرة بلوط في مواجهة الشمس البكر. قال بتذمر:
- ما أفظع البرد في الجبل.
حاول أن يهيْ لنفسه سيكارة لم يفلح إلاّ بعد محاولات عديدة، برغم أن الجهد الذي بذله في الصعود قد بعث في جسده الدفء .
طار من أمامه حجل كان يسرح في عرض الطريق، مثيراً صخباً عظيماً، وهو يزعق بسخط حتى اختفى على مسافة غير بعيدة.
لاحت له الغابة مقفرة كئيبة موحشة في ذلك الفصل من السنة.. كانت الأشجار تنتصب عارية في خشوع كأشباح محزونة.. على الأرض تتبعثر في فوضى أكوام من الأوراق الذابلة والأغصان الجافة المتكسرة.. كل شيء يبدو موحشاً ساكناً. في أعماق التربة أيضاً ترقد البذور في سباتها العميق بانتظار هزة الربيع السحرية لتبعث فيها الحياة والحركة من جديد.
تنفس بحبور رائحة الغابة السحرية ملء صدره.
فرك يديه وهو يتأمل مخيمات الجند فوق الهضبة. من وراء الهضبة لاحت له السهول واسعة منبسطة تمتد في الأفق.. تتناثر عليها آلاف القرى البائسة. تناهت له أصوات إنفجارات بعيدة :" طم! ..طم!"... الجحيم يفتح أبوابه على هذه الربوع منذ أعوام. حمد ربه لأن النيران المندلعة لم تمتد بعد إلى قريتهم. نظر إلى القرية الرابضة تحت سفح الجبل في نهاية الهضبة مباشرة، رأى خيوطاً بيضاء من الدخان تتصاعد من المدافئ الخشبية، من بيوت القرية ثم لا تلبث أن

تتجمع إلى الشرق على هيأة سحابة ناصعة البياض.. اهتز جسده فجأة وتقلص على أثر قشعريرة مفاجأة، فنهض، فرك يديه بقوة ثم خاطب نفسه بصوت عالٍ:
ـ لقد بردت، ينبغي أن أعمل حالاً لكي أبعث الدفء في جسدي. سار عدة خطوات والفأس في يده، سمع طقطقة الأغصان اليابسة تتكسر تحت قدميه. التفت إلى الوراء على اثر خشخشة في الغابة، لمح رجلين يرتديان الملابس الكردية يتقدمان نحوه، أدرك أنهما من الحرس. خطر له أنهما قد يعتقلانه.. تذكر نصيحة الشيخ بالأمس، غير انه تمالك نفسه ووقف ينظر إليهما بشجاعة. كان الأول فتى أعور نحيف القامة، والآخر كهلاً تجاوز الستين من عمره، قصيراً ضعيف البنية، مربد الوجه. بادره الكبير قائلاً بلهجة غير ودية:
ـ مرحباً يا ابن العم.
تأمل الفلاح وجهه القاسي الذي لا يبشر بالخير. وأجاب:
ـ مرحباً.
ـ من أي قرية أنتَ؟
ـ من بوزان.
ـ أظن أنك جئت تحتطب؟
ـ اجل!
ـ ألا ترى في ذلك خطورة على حياتك؟
وأشار الفلاح إلى ملابسه الرثة وهو يجيب:
ـ خطورة؟ هذا صحيح لكني رجل معدم، أولادي جياع، لا يوجد أي عمل آخر فقررت بيع الحطب.
ـ أين تبيع الحطب؟
بعد لحظة تفكير أجاب:
ـ في مركز القضاء حيث يدفعون ثمناً جيداً.
ـ لكن كيف تذهب إلى هناك إن لم يكن لك علاقة بالحكومة؟
ـ أوه! أذهب إلى هناك خلسة مثلما جئت إلى هنا خلسة.
بعد لحظة سأله الرجل الكهل:
ـ لمَ لا يلتحق أهل قريتك بصفوفنا؟
أجابه الفلاح بعد تردد قليل:
ـ نحن فقراء.
تطلع الفتى إلى رقعة السماء لمح غيوماً بيضاء تزحف باتجاه الغرب. ثم التفت إلى صاحبه وقال بلهجة ذات مغزى:
ـ لنمضِ!..
بذات اللهجة التهديدية قال الرجل الكهل وهو يعلق بندقيته في كتفه:
ـ لا تحاول أن تخدعنا . لا توقد أي نار، لأن الدخان يلفت نظر العدو.

..ثم مضى الرجلان فراقبهما حتى اختفيا في الغابة بين الأشجار الكثيفة. عندئذ قال في سره:
- إنهم شرسون!
ألقى نظرة أخرى على القرية. الدخان يتصاعد من المدافئ دون انقطاع.. والرجال؟؟ إنهم الآن يقرفصون تحت أحد الجدران في مواجهة الشمس.. ماذا تراهم يقولون عنه؟ مجنون؟ ليكن.. غداً سيحصل على وزنة حنطة، سينقذ أولاده من غائلة الجوع. أما هم سوف يتعجبون أشد العجب لذلك.
.. ظل يجتر أفكاره حتى انحدر على السفح الآخر للجبل، فاختفت القرية عنه. لاحت له إلى الشمال سلاسل جبلية متعاقبة ترتفع بشموخ حتى عنان السماء، وقد أحاط ضباب بنفسجي بآكامها البيضاء.
ارتعد جسده من البرد، لكنه كان يدرك بأنه سيدفأ بالعمل. وارتفعت يده في الهواء قابضة بقوة على الفأس:
- طاق.. طاق.. طق.. طقطق..
كان صدى ضربات الفأس يتردد في أنحاء الجبل . ومضى الرجل يقتطع الخشب بهمة ونشاط وهو يفكر مع نفسه:
الأمور إلى حد الآن على ما يرام. سأرجع في الليل لن يلحظني الجند. أما هؤلاء فلن يعودوا ثانية!
بعد فترة من العمل قرر:
- سيكون حمل الحطب جاهزاً عند الضحى.
استمر يقطع الخشب ويشذبه من الأغصان الصغيرة. استمر فترة طويلة بدون توقف. بين آونة وأخرى كان يمسح العرق المتصبب على جبينه بكمه، كان يختار خشب البلوط أو العفص، فبقية الأخشاب رديئة غير مرغوبة. وينتقي متوسطة الحجم، لأن الغليظة ترهق الحمار والرفيعة زهيدة الثمن.. أحسّ بالجوع فجلس على صخرة فيها حفرة مليئة بمياه المطر.. نظر إلى السماء رآها ملبدة بالغيوم.. غيوم بيضاء زاحفة نحو الشرق. على مقربة منه غرد عندليب، أثار انتباهه التراب الرطب الذي طرحه النمل حول حجره في الليل، فتطلع ثانية إلى صفحة السماء بشك. أيقن أن الثلوج ستتساقط بغزارة.
عاود العمل كرة أخرى. صفع وجهه رذاذ من المطر. آه ..
لقد بدأت تمطر شرع يفكر بقلق في أمر العودة وهو يضرب بالفأس على أصل شجرة بلوط يابسة. استمر يعمل بسرعة فائقة... كيف يتسنى له أن يقطع ذلك الجزء المكشوف من الطريق الممتد بين الجبل والهضبة؟ محنة! لو رأوه ينحدر من الجبل؟! قطعت أفكاره إنفجارات متلاحقة غير بعيدة. ثم مرقت من فوق الغابة طائرة تئز بغضب رفع رأسه لكنها اختفت عنه بسرعة البرق.

... هاله أن يرى نتفات من الثلج تتراقص فوق رؤوس الأشجار باضطراب شديد قبل أن تصل الأرض لتذوب. قال يحذر نفسه:
- يجب أن افرغ بسرعة.
شرع يراقب بيقظة بالغة نتف الثلج وهي تذوب مباشرة بمجرد وصولها إلى ارض الغابة المبتلة.
انهمك في جمع الأخشاب المقطوعة. اخذ تساقط الثلج يتزايد. بدأت النتف تقاوم قليلاً قبل أن تذوب. شعر ببرودة فظيعة تدب في يديه المبتلتين. لكنه ناضل بعناد حتى رزم الحطب وحزمه فوق ظهر الحمار. أظلمت الدنيا.. هبَّ إعصار. امتلأت السماء بمجموعات هائلة من نتف الثلج المتجهة نحو الأرض باضطراب شديد. بعد فترة أضحت الأرض بيضاء بلون الورق. ضاعت معالم الطريق أخذ الرجل يهتدي بالصخور الكبيرة والأشجار الباسقة. عندما اعترضته شجرة صنوبر ضخمة علم أنه يسير في الاتجاه الصحيح.. تزايد تساقط الثلج حتى لم يعد بإمكانه أن يرى أكثر من مسافة عدة أمتار. وصل إلى منحدر صخري ساق الحمار بحذر شديد. توقف لحظة ليزيل الثلوج المتراكمة على قلنسوته وكتفيه، وحذائه المنسوج من الصوف.
خطرت له فكرة مرعبة:
- ليس بالإمكان المرور من هناك في وضح النهار إنهم سيطلقون النيران بدون سابق إنذار. التوقف أيضاً معناه الإنجماد فالموت.
بدأ يهبط السفح الآخر للجبل. كانت الرياح تعوي في الوديان. الغيوم تندفع مسرعة من فوق رأسه. تدحرجت قطرات باردة من المياه على قفاه متوغلة باتجاه الظهر.. ابتلت ملابسه. شعر أن أصابعه تتورم حتى كاد يطفر منها الدم، وأضحى من المستحيل عليه أن يستمر في المشي. قال لنفسه:
- سأتوقف في احد الكهوف حتى المساء.
كان يشعر بمشقة وهو ينتزع قدميه من بين الثلوج الرخوة الهشة. الحمار أيضاً يترنح تحت حمله الثقيل ويرتعد من البرد.. لاحظ أن الغيوم - باتجاه الجنوب- أخذت تتبدد بسرعة لائذة نحو الغرب على هيأة سحابة سوداء قاتمة. تابع سيره.. كان صوت الإنفجارات يطرق أذنيه بوهن. الرياح الشتوية ما تزال تعربد بقسوة في الغابة فتهتز لها الأغصان ملقية بحملها الثقيل من الثلج على الأرض، توقف سنور بري يتأمل في استغراب المخلوق العجيب الذي اقتحم عليه الغابة في ذلك الجو المكفهر. انحنى الرجل ليلتقط حجراً من تحت الثلج فولى الحيوان الأدبار مذعوراً.
خف تساقط الثلج، ثم انقطع تماماً لاحت له السهول مغطاة بالثلوج حتى أطراف مدينة الموصل. وأشرقت الشمس لحظة من ثغرة بين الغيوم . فكر الرجل:
- إنهم لا بدَّ قلقون الآن.

تابع سيره. زلقت رجل الحمار ترنح باتجاه الهاوية لكنه استعاد توازنه ومضى في طريقه بإذعان. كان قد بلغ الآونة، منتصف السفح. عاد يفكر ثانية في أمر العائلة ورجال القرية هم ينعتونه بالبغل لدأبه على العمل.. ماذا تراهم يقولون عنه الآن بعد هذه المخاطرة؟ البغل المجنون؟ ليكن إنه على أي حال يعرف كيف ينتزع رزقه حتى من بطن صخرة. وهو كثيراً ما يقول لهم: أيّها الكسالى. يا أولاد العاهرة. إن الرجل خلق للعمل.. انه يعلم أنهم يتصورونه نصف مجنون. قطع عليه تفكيره أزيز طائرتين تحلقان فوق رأسه ببطء.. تابعهما بأنظاره وهما تتجهان نحو الهضبة ثم تستديران نحو الجبل.. حوّمت أحدى الطائرتين فوق الجبل على شكل دائرة حتى بلغت قمة الجبل ثم انقضت كالصقر فوق رأسه مزمجرة كالرعد.. أحسّ بالخوف والوحدة فجمد في مكانه:

ـ طط..ط..طط..طم!

رشقته الطائرة بصلية من مدفع رشاش. ثم أعقبتها الثانية برشقة أخرى تطاير في الهواء من حواليه خليط من التربة ونتف الثلج والأغصان المتكسرة ومرقت بالقرب من أذنه شظية تطن كالزنبور.. لمح على صفحة الثلوج حفر حمراء غير عميقة، اندفع إلى بطن الوادي بدافع غريزي غير آبه إلى الشجيرات الشائكة التي اعترضت طريقه. علت وجهه صفرة مريعة، أحس برغبة عنيفة لقضاء حاجة طبيعية. قبعَ في مكمن حصين بين الصخور، شرع يراقب الموقف بذعر وهو يرتجف من الخوف والبرد. أحسّ بدفء شديد في قدمه الأيسر، لمح بقعة من الدم على حذائه فهمس:" لقد جرحتُ! لكنه جرح بسيط على ما اعتقد" تطلع إلى الحمار كان ما يزال واقفاً في مكانه، عادت إحدى الطائرتين لتشن غارة أخرى. رأى الحمار يكبو مترنحاً ثم يتدحرج باتجاه الوادي، ندت عنه نهقة قصيرة متوجعة ضاعت في غمرة هدير الطائرة الصاخب نهض الرجل بصق بغضب تفو وهو يتابع بأبصاره الطائرة التي ابتعدت في الجو. وقال بحزن:

ـ لقد نفق الحيوان.

تأمله بأسى، وهو يعاني النزع الأخير.. ثمة شظية اخترقت رأسه تحت العين مباشرة قوائمه تختلج بوهن، رأسه يمتد في إعياء فوق الثلج. أسنانه منطبقة على بعضها في تكشيرة مريعة تنطق بهول الموت. خليطاً من الروث والثلج والطين الأحمر تحت الحيوان فقال:

ـ يجب أن أحرره من حمله على الأقل.

بعد أن نفذ مهمته جلس على الثلج بجانب الجثة بدأ يلف سيكارة.. شرعت مجموعات أخرى من الغيوم تندفع للغرب. أحس ببرودة جليدية تسري في عظامه.. آلمه جرحه نزع الحذاء، تمتم أن الجرح بسيط لن يعيقه عن المشي، تخثرت دماؤه حالاً بفعل البرودة الشديدة. تناهت إلى أسماعه قرقعة قريبة، ومن خلال الضباب الذي بدأ ينقشع تدريجياً بدت له معالم غير واضحة من قريته.

تذكر أطفاله الجياع، ورجال القرية الذي سيسخرون كثيراً لحماقته.. عندئذ سحب نفساً عميقاً من الدخان، تنهد، ثم طوح بالسيكارة فوق الثلج غاضباً، قال بصوت مسموع:
ـ سأوصل الحطب إلى القرية حتى لو كان في ذلك هلاكي.
قعد على الثلج مستنداً على عجيزته، غارساً قدميه في الأرض بقوة. امتدت يداه إلى الوراء سحب حمل الحطب فوق ظهره بعناء شديد وببطء مميت ومشقة قاتلة تمكن أن يعتدل في جلسته مستنداً على أطرافه الأربعة مثلما يفعل الحيوان، هكذا شرع يصعد من بطن الوادي الى الطريق على أرض مغطاة بالثلوج الهشة.
قبيل الغروب وصل الهضبة. تساقطت الثلوج من جديد. لكن الرجل واصل طريقه نحو القرية بعناد عجيب، وظهره يكاد ينقصم تحت حمله الثقيل.. كان يشعر بجوع شديد، وتؤلمه ذكرى الحيوان المسكين الذي ظل منطرحاً على الجليد في بطن الوادي، لكنه واصل طريقه وهو يترنح في مهب الرياح الشتوية الباردة، ومن ورائه ظلت آثار أقدامه على الثلج حتى جن الليل..
وبلغ القرية.
وتساقطت ثلوج غزيرة فمحت كل أثر.

الحقيقة الضائعة

قيل له أن كل شيء يباع في (باب الطوب) بأسعار زهيدة مغرية. لذلك توجه إلى هناك- في أول سفرة له إلى الموصل- كي يشتري بعض الحاجيات لعائلته.. لفت انتباهه دُكان فاكهة، قرر أن يشتري قليلاً من التفاح لأطفاله. تقدم من البائع استفسر بلغة عربية ركيكة:
- بكم تبيع كيلو التفاح؟
حدجه البائع بنظرة متفحصة قبل أن يجيب:
- ربع دينار.
- درهمان.
- أربعة دراهم.
- لكنهم يبيعون الكيلو بأقل من مائة فلس.
برقت عينا البائع، وزعق:
- كل واحد يبيع حسب رغبته!
- ألا تبيع بدرهمين؟؟
انفجر البائع يصرخ، والرذاذ يتطاير من بين أسنانه الصدئة:
- أنا حر. أبيع كما يحلو لي.
- لِمَ لا تبيع كسائر الناس؟
صرخ البائع ثانية بنفاذ صبر:
- أغرب عن وجهي!
قال الفلاح ببرود محاولاً تهدئته:
- لا تغضب ماذا قلت لك؟
تزايد غضب البائع وهو يصرخ:
- فلاح يزيدي نجس!
أجابه الفلاح وقد امتقع وجهه:
- ليس هناك مبرر للغضب.
عندئذ ارتفعت يد البائع في الهواء، وهوت بعنف على وجه الفلاح في صفعة قوية. تطلعت العيون من الحوانيت المجاورة إلى مصدر الجلبة، إلاّ أن الفلاح مضى في طريقه متعثراً يسحقه الذل والهوان. تناهى إليه صوت البائع يسب في حنق:
- فلاح تعِس. اللعنة على إبليس!

التفت إليه الفلاح بوجه جامد ممتقع وكيانه يرتعد من الغضب والخوف والشعور بالخزي.. ثارت في أعماقه النعرة الأصلية، نعرة الإنسان البدائي عندما تُهان مقدساته، وصاح بالبائع بصوت متهدج:
ـ أنت كلب سافل. أنت نذل.
استشاط البائع غضباً حتى كاد يفقد صوابه، فقذفه بفردة حذاء وعلبة كارتون فارغة. غادر دكانه ليلحق به، عندئذ اعترض طريقه بقال آخر سمين كالدب وهو يقهقه من الأعماق كأنه يشاهد مسرحية هزلية. انتابته نوبة سعال فاحتقن وجهه، امسك بكتف زميله، لوّح باليد الأخرى نحو الفلاح باستهانة، واستفسر بصوت متقطع:
ـ ما القضية يا أحمد؟
أجاب الآخر ببرود مصطنع:
ـ الوغد يشتم...
ـ يشتم ماذا؟؟
ـ الدين..
ـ الدين؟!
ـ اضطرمي يا نيران جهنم..
تلفت الفلاح حواليه مرتبكاً. الذعر يهزه هزاً كأنه حيوان مطارد سدت في وجهه جميع المنافذ. صاح بأعلى صوته:
ـ أنا لم اشتم.
نظر حواليه مرة أخرى باضطراب شديد.. الخنزير ما يزال يقترب منه. سيمزق لحمه. عشرات الأعين تحدق فيه بغضب. الأيدي ترتفع في الهواء منذرة متوعدة حتى المارة وقفوا يتفحصونه متعجبين. ضاعت صيحته. ضاع كل شيء.. الخنزير سيمزق لحمه. تمتم مع نفسه: ليس من سبيل إلى الهرب.
حاول عبثاً أن يصد الضربات التي شرع يكيلها له البائع بقسوة ووحشية. تطلع إلى أصحاب الحوانيت المحيطة به مستنجداً مستغيثاً، لكنهم جميعاً ينظرون إليه بازدراء وشماتة. ذئاب بشرية. أيفرحكم منظر الدماء؟ يا للعجب! إذن، لا تنسوا أن الإنسان خير له أن يموت شجاعاً من أن يموت جباناً طالما سيموت.. استمد من يأسه شجاعة. أخذ يصرخ في وجوههم:
ـ لا تضربوني! أيها الأنذال، أيها الجبناء. إني لم أشتم.
دفعه رجل نحيف له هيأة ثعلب وهو يقول بقحة:
ـ مت كما يموت الكلب!!
انفجر البركان. انهالت عليه اللعنات من كل جانب. اتته الضربات من جميع الجهات. قشر رقي ينطلق نحوه في الهواء كالصاروخ. فردة حذاء أخرى. كيلو حديد. علب كارتون. طماطم وفواكه مختلفة. هذا عقابك. خذ. خذ. . السماء

تمطره بأغرب مطر صادفه في حياته. حاول أن يتجنب كل شيء بخفة ومهارة، لكن الذئاب بدأت تحيط به من كل جانب غامت عيناه، ترنح، لكنه تمالك نفسه، نظر إلى نهاية الحلقة البشرية المحيطة به صرخ رجل مجنون وهو يشق طريقه وسط الزحام:

ـ أضربوه

تعالت أصوات أخرى:

ـ الموت للكافرين؟

ـ لا تدعوه يفلت.

ـ المجرم!

ـ ابن العاهرة.

ـ غريب صلف يعتدي علينا بين ظهرانينا.

ـ وما ظلمناهم.

ـ أفسحوا لي الطريق لأؤدبه.

ـ أين هو؟

ارتفع صوت شاب يقول في حزم:

ـ ليس من العدل أن تعاملوه هذه المعاملة الوحشية...

لكن سرعان ما ضاع صوت الشاب في خضم الضجة المجنونة.. سحبه حمال اعور من يده إلى وسط الدوامة وهو يعوي:

ـ التاجر يقول أنه شتم الدين. التاجر لا يكذب.. أتراك تدافع عن الباطل؟ في كثير من الغموض تناهى إلى أسماع الفلاح صوت الشاب وهو يقول:

ـ تاجرك يا هذا ضيق العقل، ووجوده قائم على الكذب والغش والخديعة. هو على استعداد لأن يقتل إنسانا ً في سبيل فلس واحد.

وعلا صراخ. إنهم لا بدّ يضربون الشاب أيضاً بدون رحمة. في وضوح تام رأى الفلاح حلقة بشرية ثانية تتكون على مقربة منه.. ربما أنهم يطوقون الشاب. وبدأت تتكون حلقات فرعية. الدوامة البشرية تكبر وتكبر. من الشوارع الفرعية أخذت تصب في أطراف الدوامة جداول آدمية يدفعها الفضول من كل مكان: من سوق العطارين وباب السراي والجسر القديم وسوق اللحم ومحلة الجوبة. كبرت الدوامة إلى أقصى حد وازدادت سعة وجنونا ً حتى ملأت ساحة (باب الطوب) بأجمعها.

وصل رجل كهل قصير القامة، وقف في طرف الحشد. ثم سأل رجلاً آخر بقلق وهو يقف على أصابع قدميه:

ـ ماذا يجري؟ مظاهرة؟

أجابه الآخر باقتضاب:

ـ عراك.

تدافع الناس في موجة قوية صاخبة أبعدت الفلاح عن بائع الفاكهة والآخرين الذين يضربونه.
ثم ضاع الفلاح بين الجماهير.
في وسط الدوامة صاح رجل مسن في مقدمة فمه سن وحيدة- فقد السيطرة على أعصابه- صاح برجل آخر يلتصق به:
- لا تدفعني.
- اخرس! من الذي يدفعك؟
تلاطم الرجلان.. صرخ آخر بذعر:
- محفظتي! محفظتي!
الحشد يتضخم. الضجة ترتفع حتى عنان السماء. لم يعد في إمكان احد أن يفلت من الدوامة إلاّ بشق النفس.
سقطت عجوز تحت الأقدام، راحت تعوي عواء رهيباً متواصلاً حتى انتشلها شاب قوي البنية.
كان الفلاح يشق طريقه بعناء نحو نهاية الدوامة.
(الحاجة فطومة) بائعة الدولما شرعت تتفرس وجوه الناس بعد أن داست الأقدام قدرها وطوحت به إلى ركن قصي من الساحة. فقد احد الأفندية فردة حذائه. ظل حمال سمين يسب الحشود البشرية. انقلبت عربة لحم تحت ضغط موجة بشرية، سحقتها الأقدام مثلما تسحق علبة كبريت، فقد القصاب صوابه راح يكيل الضربات لمن حوله. وكال له الناس ضربات مماثلة.
اندفع عدد من اللصوص والانتهازيين إلى احد الحوانيت فنهبوه. اقفل معظم التجار حوانيتهم.
بلغ الفلاح نهاية الطوق. سأله احدهم:
- ماذا هناك؟
أجابه الفلاح متلعثماً:
- لاشيء.
قهقه الرجل ، ثم التفت إلى جهة أخرى سأل صبياً :
- ماذا هناك؟
أجابه الصبي:
- لا ادري!

***

بلغ الفلاح نهاية الطوق. اتجه نحو الشارع العام، اعترضت طريقه مفرزة شرطة مسلحة بالهراوات الغليظة. أوقفه شرطي مستفسراً وهو يداعب هراوته المصقولة:
- أنت قادم من باب الطوب. ماذا هناك؟

أجابه الفلاح على الفور:
- لا ادري.
ومضى في طريقه لا يلوي على شيء.
سنجار15/11/ 1969

الطريق إلى الكرامة

رأى أهل قرية "كفر عبده" شرذمة من الجنود الصهاينة يسوقون أمامهم (سيد مصطفى أبو خليل) عمدة القرية، وهم يضربونه بأعقاب البنادق و يرفسونه بأحذيتهم العسكرية الثقيلة، تطلع إليه معارفه الذين تجمعوا في أطراف القرية، وقالوا بأن الرجل قد انتهى. نظر هو أيضاً نحوهم بأسى فرآهم مطوقين بعدد هائل من الجند، على مسافة غير بعيدة لمح بعضهم يضربون زوجته بقسوة ووحشية، أغمض عينيه، مضى في طريقه يترنح، الضربات تنهال عليه من كل جهة.. اصمَّ أذنيه دوي انفجار مرعب، التفت إلى الوراء، رأى سحابة من الدخان الأسود تتصاعد من وسط القرية، عندئذ أيقن أن المجرمين قد نسفوا منزله. طفرت من عينيه دمعة، تذكر في غمرة المأساة ابنه الصغير حسن: أليس من المحتمل أن يكون الآن جثة مسجاة في العراء، على رمال الصحراء الملتهبة، نهباً لجوارح الطير؟ لكن من الجائز أيضاً أن يكون الآن حياً ما يزال يقاتل المحتلين بشجاعة ليثأر لكرامة وطنه المهدورة..! صور عديدة تتزاحم في ذهنه، الابن ..الزوجة.. المنزل المنسوف ..الضابط الإسرائيلي.. حوادث مؤسية من الماضي البعيد والقريب، كلها تتزاحم في ذهنه، كل شيء من حواليه يثير الرثاء، لكنه برغم كل ذلك يشعر براحة نفسية عجيبة، فقد ظل منذ زمن طويل ينتظر بلهفة حلول مثل هذا اليوم السعيد.

***

استسلم العمدة العجوز لضربات الجلادين، ومضى في طريقه ساهماً وهبَّت في أعماقه ذكريات ربع قرن من الزمان:

" شذاذ الآفاق..!

يا شعب الله الضال. أرضنا الخضراء اجتذبتكم مثلما يجتذب الزرع اليانع أسراب الجراد. أما قصة الميعاد فإنها مجرد وهم لا تؤمنون به حتى انتم أنفسكم..! الأرض، وماذا يبقى لنا من مقومات الوجود لو انتزعتم الأرض منا؟؟ لا شيء.. وأنتم تعرفون ذلك جيداً .

من يفقد أرضه يفقد حريته، ومن يفقد حريته يفقد كرامته. الأرض؟! لقد بصقتم على كل القيم الإنسانية في سبيل انتزاعها منا.. قتلتم شبابنا، وشردتم شيوخنا وأطفالنا، وانتهكتم حرماتنا، ومن بقي منا متمسكاً بأرضه، فقد أصبح غريباً في وطنه. لقد فرضتم عليه أن يعمل أجيراً في أرضه.. لكن الأرض ستعود لأصحابها، وكل ليل يعقبه نهار.."

***

.. ضربه جندي إسرائيلي بأخمص البندقية فشجَّ رأسه، ترنح الشيخ العجوز باسطاً ذراعيه إلى الأمام في محاولة يائسة ليقبض على شيء ما. غامت عيناه، بدا له- على نحو غامض- كل شيء مغلف بالضباب.. تناهى إلى أسماعه صوت احدهم يصرخ بغضب:

- أنت تهذي أيها العجوز المأفون.

أعقبه صراخ جندي آخر كأنه عواء ذئب:

- عن أي أرض كنت تتحدث أيها العجوز؟

تحسس العمدة جرحه بلا وعي، وتمتم:

- شالوم!

قهقه الجنود بوقاحة، وهم يدفعونه لكنه استطرد يقول:

- شالوم قال لي: أيها العجوز، تلعب لعبة قذرة. فأجبته بأن الشيوخ لا يلعبون!

قال جندي نحيف أشقر:

- إنه يهذي.

أخلد العمدة(سيد مصطفى أبو خليل) إلى الصمت. كانت جراحه تؤلمه كثيراً، عادت الذكريات تتلاحق في ذهنه:

***

"الضياع..!

منذ ربع قرن وثالوث الجريمة، الإقطاع والرجعية والاستعمار، يخطط لإضاعة شعبه بأجمعه. لكن الشعب أقوى من أن يقهر.. غداً ستشرق الشمس وتدحر فلول الظلام إلى الأبد. جنكيزخان.. نيرون.. هتلر.. أسماء كان يرددها الشبان على مسمعه ارتبطت في ذهنه بأسماء أخرى: وايزمان.. دايان ..مائير. الشبان تفرقوا الآن في أطراف الأرض من اجل القضية. منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر. ابنه عادل اغتاله الجلادون في سجن الخليل. جليل يكافح الآن مع الفدائيين . حسن الصغير تركه قبل ساعات على أرض المعركة.. أخوه خالد رحل مع عائلته إلى العراق. يونس ..فاطمة ..سعد ..احمد ..مها .. لؤي، أين هم الآن ؟ إنه لم يعد يعرف عنهم شيئا ً مطلقاً.. آلاف آخرون يعيشون الآن في الخيام، غيرهم احترقوا بقنابل النابالم. أو استشهدوا تحت الأنقاض أو بين زناجير الدبابات. يخيل إليه أن كل هؤلاء شخص واحد.

كانوا آنذاك قد ابتعدوا وإياه عن قرية" كفر عبده" امتلأ الجو بأزيز تشكيلة من طائرات العدو. ثم اهتزت الأرض بأصوات إنفجارات متلاحقة آتية من جهة الشرق.. لكزهُ جندي طويل وهو يقول ساخراً:

- قل لنا أيها العجوز: ما الذي يأمله العرب بعد حرب حزيران؟

أطرق العمدة قليلاً، ثم تمعن في يديه المخضبتين بالدم. حملق باحتقار في وجوه الجنود الإسرائيليين وبصق على الأرض، بصق دما ً.. كان ذلك جوابه على سؤال الوغد الإسرائيلي الجبان:
ثم غرق مرة أخرى في أحلامه:
النكسة..!
هؤلاء الجنود يتحدثون بشماتة عن نكسة حزيران. آخ .. ستبقى ذكراها جرحاً غائراً في صدره. إنه يتذكر الآن بوضوح كيف ظل خمسة أيام ملتصقاً بالراديو يصغي إليه بشغاف قلبه.. كان أن تحولت آماله إلى رماد، هكذا خيل إليه في ساعة القنوط. ثم طوى همومه في صدره، بقي ذاهلاً عن نفسه فترة من الزمن، لا يكاد يكلم أحداً.. كان يخرج إلى الحقول برفقة ابنه الصغير ليطلق لهمومه العنان، كره نفسه، كره الكوخ، كره الناس، كره كل شيء. قالوا عنه ربما يكون قد فقد عقله. شرع يهذي، بدأت السلطات الإسرائيلية تضيق الخناق عليه، اتهموه بالتعاون مع الفدائيين. عاد يتهجم على العرب ويمتدح إسرائيل، احتار الناس في أمره: أتراه يموه العدو أم انه جاد في تصرفاته؟!. ذات يوم التقى به جاره ناحوم- يهودي معدم من نيبال- قال له مازحاً: " ما بك يا أبا خليل؟ إن اليهودي الغني لا يفهم لغة اليهودي الفقير، كيف تريده أن يفهم لغة فقراء العرب؟". فكر كثيراً في كلام جاره، أيقن أن المظلومين في العالم يتفاهمون فيما بينهم بلغة في حين يتفاهم الظالمون مع بعضهم بلغة أخرى، ولا سبيل لأن يتفاهم الطرفان إلا بلغة أخرى هي لغة الرصاص..! لكن برغم اقتناعه بهذه الحكمة فإنه ظلّ على اتصال بالعدو..".

***

لحق بهم رتل عسكري، استقل الجنود إحدى الشاحنات، تكوم العمدة على نفسه في وسط السيارة وهو في اشد حالات الإعياء. كانت جراحه تؤلمه، رغم اهتزاز السيارة في الطريق الترابي الوعر:
تذكر ابنه الصغير مرة أخرى:

***

" الفدائيون..!
أخيراً انطلق المارد الجبار من القمقم الذي ظل في داخله، بدا الناس يتكلمون مع ثالوث الجريمة بلغة الرصاص. ها هو الشعب ينفض عن كاهله غبار الماضي المحزن. الرصاص ينهمر من كل جهة على الدخلاء المغتصبين وراودته آمال عظيمة. سيحين حتماً ذلك اليوم الذي يمحي فيه الفدائيون عار الهزيمة. تمنى من أعماق قلبه أن ينضم إلى صفوف هؤلاء الأبطال، لكن العدو كان يعرف أنه بدا يسير في اتجاه مضاد للفدائيين، قرر أن يستمر حتى النهاية، برغم أن ابنه

جليل فدائي، لقد أصبح شيخاً طاعناً في السن، هدمته أعوام قاسية في ظل الاستبداد، العدو يقظ، لا يتورع عن البطش مطلقاً. الحذر! ليس من الحكمة أن يضحي بحياته سدى. ليقل الناس عنه ما يشاءون. جاسوس؟ لا يهم..! باع دينه ووطنه لقاء درهم؟ لا يهم..! يلعب على حبلين: أبنه مع الفدائيين وهو يتعامل مع العدو؟ لا يهم..! الناس يعرضون عنه ويسمعونه كلاماً جارحاً؟ لا يهم..! سيارة ضابط الاستخبارات الإسرائيلي شالوم تقف كل يوم بباب كوخه؟ لا يهم..! يقبض ثمن الخيانة.. لا يهم..! إنه يقبض فعلاً مبالغ طائلة من الإسرائيليين لقاء خدمات بسيطة جداً يقدمها لهم في بعض الأحيان.. يتذكر الآن في وضوح كيف جاءه أهل القرية قبل يومين فقط محاولين أن يثنوه عن المضي في طريق الخيانة، لكنه رفض طردهم شر طردة، قالوا عنه أنه قد جن حتماً، يتذكر أيضاً كيف جاءه الضابط الإسرائيلي شالوم بعد ذلك أي قبل يوم واحد فقط، واخبره أن الحكومة جد قلقة بسبب أعمال (المخربين) واعتداءاتهم المتكررة على السكان الآمنين، ويتذكر كيف ناوشه الضابط رزمة من الأوراق النقدية وهو يقول باستهانة بأنه يفيدهم كدليل في دك معاقل (المخربين) في الكرامة. لكنه رفض في بادئ الأمر. ثم وافق بعد أن ناوشه الضابط رزمة أخرى، ويتذكر كيف انصرف الضابط بعد أن زوده بتفاصيل أولية عن العملية العسكرية المرتقبة. تمَّ الاتفاق على أن تكون ساعة التحرك في منتصف الليل، ثم توالت الأحداث سريعة متلاحقة بعد ذلك. تذكر ابنه الصغير حسن حمل رسالة صغيرة إلى الفدائيين، مشى وحده إلى الكرامة غير آبه بالظلام والعدو والوحوش.. ثم جاءت سيارة عسكرية حملته في الموعد المحدد، تقدمت قافلة عسكرية كبيرة باتجاه الكرامة. كان الفجر يزحف كان يبدو في غاية الانشراح وهو يجلس بجانب الضابط الإسرائيلي شالوم. أشرقت الشمس فراح الضابط يرقب بقلق ظاهر جانبي الطريق، كانت ثمة تحصينات قد أقيمت في الليل. فجأة أصدر الضابط أمره بالتوقف والتأهب للقتال، ظل كل شيء هادئاً ساكناً لكنه ينذر بانفجار مرتقب.. ثم لاح على ربوة إلى يسار الطريق شبح صبي صغير، تمعن الضابط في الصبي ثم شهر مسدسه وزعق بغضب:

ـ ابنك حسن؟!

أجابه ببرود:

ـ نعم.

ـ ماذا يفعل هناك؟

ـ جاء يخبر الفدائيين بقدومكم.

ـ أنت أيها العجوز، كنت إذن تلعب معنا لعبة قذرة!

ـ إنّ الشيوخ لا يلعبون.

هذا ما قاله للضابط. انتصب متشامخا ًمرفوع الرأس، وقد علت وجهه ابتسامة. نظر باحتقار في وجه الضابط الإسرائيلي. ثم سحب من بين طيات ملابسه رزماً من الأوراق النقدية ـ هي كل ما قبضه من العدو ـ قذف بها في الهواء عالياً، فتطايرت. وكانت تلك هي الإشارة لمعركة الكرامة.
وانهمر الرصاص من كل جهة. واعتقلوه فقال لهم:
ـ هناك لغة واحدة يمكن أن نتفاهم بها معكم هي لغة الرصاص!!
سنجار1970/6/3

ذلك المسافر!

أخيراً بعد انتظار ممل، صدرت إلينا الأوامر بالصعود إلى السيارة، كنا قرابة أربعين راكباً في طريقنا من الموصل إلى بغداد، كانت السيارة كبيرةً من طراز فالفو.
أخطأ عدد من الركاب في معرفة المقاعد المخصصة لهم، حاول آخرون الاستئثار بالمقاعد القريبة من الشبابيك. كان معاون السائق منهمكاً في مسح زجاج السيارة الأمامي وجهه ساذج عيناه غبيتان شأنه شأن جميع أترابه. تبقت دقائق قليلة على موعد تحرك السيارة دون أن تنتهي المشكلة بين الركاب، وتطورت الأمور إلى مشادة كلامية بين أفندي مغرور وعسكري طائش، عندئذ قفز السائق إلى الباب بحركة بهلوانية رشيقة وأنهى الأزمة ببضع كلمات نابية قاسية إلى درجة الضحك.
في المقاعد الخلفية كانت تجلس ثلاثة نسوة محجبات، برفقتهن صبي وامرأة.
أدار السائق محرك السيارة. هدأت الضجة تماماً في الداخل، توقعنا أن تنطلق (لونا) في رحلتها الميمونة!
لكن السائق قفز فجأة، دون أن يعيرنا أي اهتمام على الإطلاق، سرت همهمة بين الركاب...
مقعدي في الصف الذي يلي السائق مباشرة. الشخص الذي يجلس إلى يساري شاباً في مقتبل العمر. بدا لي غارقاً- على نحو غريب- في قراءة بحث نظري في مجلة لبنانية، يصطحب معه مجموعة من مختلف المجلات العلمية والكتب النظرية والجرائد، كأنه في طريقه إلى الجامعة لا في رحلة مزعجة طويلة، لم يثر انتباهه نزاع الركاب، ولا نزول السائق من السيارة فجأة قبل الموعد المقرر لتحركنا، ولا الحر الشديد الخانق إلى درجة الغثيان. لقد أعجبتني كتبه وجرائده ومجلاته لأنها تلائم ذوقي وميولي الفكرية تماماً، لكن أزعجني صمته المطبق، وانهماكه في القراءة إلى حد الذهول. حتى عندما تململ معظم الركاب في مقاعدهم ونظروا إلى مؤخرة السيارة رفعت إحدى النسوة حجابها بشكل داعر مسفرة عن جمال فاجر أثار هياج الركاب... حتى في تلك اللحظة لم يرفع صاحبي رأسه عن المجلة!.
كانت البلاد يوم ذاك تمر بأزمة حادة، فقدرت أن كتب صاحبي قد تجر عليه المتاعب في نقاط التفتيش.

زودوا السيارة بالثلج، صعد السائق إلى كرسي القيادة نفخ في بوق مزعج يصم الآذان، انطلقت السيارة تنهب شوارع المدينة. عندئذ فقط كفَّ صاحبي عن القراءة. استرقت إليه النظر، رأيت وجهه يبدو متعباً بشكل يثير العطف، عندما مرقت السيارة بالقرب من سجن المدينة اضطرب صاحبي في مقعده، امتقع لونه مما لفت انتباه شخص آخر له وجه ثعلب.
خارج المدينة، بعد أن اجتزنا معسكر الغزلاني، انكب صاحبي على القراءة من جديد.
في اللحظات التي تعقب الفراق، يميل الإنسان إلى الصمت، لذلك كان الصمت وحده يتكلم داخل السيارة الكبيرة. على أن صاحبي لم يعبأ بصمت الركاب، مثلما لم يعبأ سابقاً بلغطهم. بمودة طلب مني سيكارة ثم انكب على السطر وهو يشكرني بحرارة لا تتفق وقيمة سيكارة، مؤكداً أنه سيبتاع علبة في أول محطة للسيارات. طفر إلى ذهني خاطر مفاجئ: إنني إزاء شخص غريب الأطوار إنْ لمْ يكن مجنوناً بحق. لقد قدمَ لي سيكارة قبل لحظات ثم أعاد العلبة إلى جيبه. أتراه نسي ذلك؟ كيف أستطيع أن أنبهه إلى ذلك دون أن اجرح شعوره؟. رحت اقلب هذه الأفكار في ذهني وأنا أصغي إلى صرير العجلات الضخمة على الشارع الإسفلتي الأنيق الذي يبدو لا نهاية له.
كانت الشمس تدخل السيارة عند المنعطفات، لتجنب أشعتها المحرقة أسدلنا الستائر الزرقاء على النوافذ..
توغلت السيارة كثيراً باتجاه الجنوب، اجتزنا محطتي تفتيش دون أن يتعرض احد لكتب صاحبي. بدأت طبيعة الأرض من حولنا تستحيل إلى سهول صحراوية منبسطة قاحلة. لم ينقطع جاري عن القراءة لحظة. وفشل الرجل الذي إلى اليمين في جري إلى الحديث كنت أنظر إلى قفا السائق الحليق وملابسه النظيفة عندما استفسر أحد الركاب بلهجة سورية:
ـ خيو ما في نهر هون قريب من هل صحراء؟!
أجابه آخر:
ـ نهر دجلة لا يبعد أكثر من كيلومترين!!
عبق جو السيارة برائحة الليمون. كان الصبي الذي يرافق النسوة يتلهى بامتصاص عصير ليمونة. اعترضتنا سيارة كمارك. امتقع لون صاحبي مرة أخرى، وراح الشخص الذي إلى اليمين يراقبه بخبث. طلب سيكارة أخرى، ثم ألقى المجلة بين رجليه فوق الجرائد، كأنما قد تعب من القراءة، نظر حواليه. امتعض من رؤية الرجل الذي إلى اليمين.
في المقاعد الخلفية أفلح أحد الشبان في كسب مودة المرأة ذات الجمال الصارخ.
فجأة قال الشاب الذي يجلس إلى يساري بخجل:
ـ أعذرني!

قلت له باستغراب:
ـ لماذا؟؟
قال بارتباك وقد تورد وجهه:
ـ أظن إني طلبت منك سيكارتين، وقد نسيت بأني احمل في جيبي علبة سيكاير!!
بعد لحظة صمت قال بأسف :
ـ أنا كثير النسيان.
حاول جارنا من جهة اليمين، الرجل الذي له هيئة ثعلب، أن يتدخل في الحديث، ألجمته بنظرة حادة غامضة ومضى الشاب يقول:
ـ في كل مرة أراجع الطبيب يقول لي سوف أشفى من هذه الحالة التي أعاني منها لكن حالتي تزداد سوءاً .
سألته:
ـ منذ متى تعاني من هذا المرض؟
شرد ذهنه. سكت ولم يجبني. اختلجت عضلات وجهه المتعب، تصبب وجهه عرقاً ، وهمس أخيراً :
ـ هه؟ ماذا قلت؟
ـ قلت.. متى شعرت بأعراض هذا المرض؟
ـ منذ سنوات.
ثم ضحك بعصبية وهو يقول:
ـ أطباء الأمراض العصبية كلهم مجانين..! تصور؟ لقد نصحني الطبيب بعدم قراءة الكتب العلمية!
ـ لأنك متعب..
فالتفت نحوي قائلاً بحدة:
ـ كلا..! كلا..! أنت واهم. لماذا يمنعني الطبيب من قراءة الكتب التي تعجبني؟ أليس لأنه يتعاون معهم؟؟
سألته بحذر:
ـ مع من؟!
ـ مع أولئك الذين سببوا لي هذا المرض..
كنا آنذاك نمر في خط يوازي هضبة حمرين حيث ينساب وراء الهضبة نهر دجلة في هدوء أبدي نحو الجنوب. إلى اليمين كانت تمتد حتى الأفق سهول صحراوية جرداء- طفر إلى ذهني سؤال الرجل السوري، تذكرت صرخة الجواهري:(دجلة الخير). لكن صاحبي انتزعني من خواطري وهو يقول بانفعال:
ـ الوحوش.!!
زمَّ شفتيه بانفعال على نحو غريب، ثم استدار نحوي، مضى يقول بحركة كأنه يحدث صديق:

ـ الوحوش. هم الذين سببوا لي هذا المرض، ظلوا يضربونني بدون رحمة فترة طويلة، كانوا يفعلون ذلك بسرور عجيب. لا أستطيع الآن أن اصف لك ما حدث أثناء تلك المحنة السوداء، كان شيئا ً رهيباً لا يصدقه العقل. ربما أنني لم أعان من العذاب أكثر مما عاناه كثيرون ممن ألقى بهم سوء الطالع في هاتيك الغياهب المظلمة، لكن ما عانيته كان يفوق احتمالي، حتى أنني تمنيت الموت لعلني ارتاح من عذابي. لقد كانوا في غاية الشراسة؟ علقوني في الهواء ثم انهالوا عليَّ ضرباً حتى نهشوا لحمي وحطموا عظامي لماذا؟ اجل.. لماذا فعلوا ذلك؟ أليس لأنهم كانوا يريدون أن يحجبوا الحقيقة عنا؟! أمال وجهه نحوي، ظل يحملق في وجهي مصغياً بإذن واحدة بانتظار كلمة مني. عندئذ قلت له:

ـ جوهر الحقيقة لا يتغير وإن تغير مفهوم الناس عنها. ولم تتوقف الأجرام السماوية عن الدوران عندما كان يعتقد الناس أنها لا تدور.

ـ هذا هو رأي أيضاً.

انكب يقرأ مرة أخرى. ورحت أتشاغل بالتطلع إلى الأرض الصحراوية المترامية الأطراف. بعد فترة قصيرة طلب مني أن أصرف وقتي بتصفح إحدى المجلات، اعتذرت له بأدب لأن القراءة في وسائط النقل لا تستهويني. سمعتُ احد الركاب يناقش السوري حول دور القوة الجوية في نكسة حزيران. في مؤخرة السيارة شرعت المرأة العجوز تتقيأ!.

ألقى المجلة بين رجليه وسألني بغتة:

ـ هل سبق لك وأن اعتقلت؟

أجبته باستغراب:

ـ كلا!

امتقع لونه. بدا ذاهلاً مرة أخرى. كان جارنا في جهة اليمين يحدق في وجهه بوقاحة.. قلت له:

ـ ما بك؟؟

ـ هه؟!

أعدت عليه سؤالي فقال بحزن:

ـ ذهني يشرد إلى حد الشعور بالتلاشي، عندما أفيق أحس كأنني لم أكن موجوداً.

ـ أنت مريض.. لماذا لا تراجع طبيباً؟

ـ اجل. اعرف إني مريض. ففي بعض الأحيان يصور لي خيالي الجامح أشياء غريبة بعيدة عن دنيا الواقع!.

عادت مظاهر الانخذال ترتسم على صفحة وجهه. تناول كتاباً شرع يقرأ. استأذنت منه في تصفح مواضيع إحدى المجلات.

أتاني صوته يستفسر باستنكار:

ـ وأنت.. أليس لك علاقة معهم؟

ظننت أنه يرتاب في أمري سألته باستغراب:
ـ مع من؟؟
فأجابني بشرود:
ـ لم أقل شيئاً.
كان وجهه يبدو متعباً آنذاك أكثر من أي وقت مضى حتى خيل إلي أنه لا يفقه حرفاً مما يقرأ. ألقى الكتاب بين قدميه ثم استدار نحوي قائلاً:
ـ ذات يوم جميل، قبل أعوام قليلة، هدمنا جداراً قديماً، لكننا لم نفكر كثيراً بطرح الأنقاض خارج المدينة، عاد آخرون بنوا ذلك الجدار مرة أخرى بنوه في غفلة منا!.
تحسر وهو يكرر قوله:
ـ نعم بنوه في غفلة منا!
أومأت له برأسي موافقاً. أتراه يهذي أم انه يشير إلى فاجعة تاريخية معينة؟ لم أستطيع أن أحدس ما كان يدور في ذهنه المريض، شرع يضحك في وجهي بهستيريا وهو يقول:
ـ نعم! بنوه من جديد. هل تسمع؟! بنوه من جديد.. الآن يقصده سكارى المدينة- عندما تتقيأهم الحانات في الليل- لينـاموا تحته بطمأنينة لكننا سوف نهدمه فوق رؤوسهم مرة أخرى..
واخلد إلى الصمت. اختلجت عضلات وجهه بعنف. زاغت عيناه بشكل رهيب ثم جمدت في محجريهما كقطعتي زجاج ثم ارتعد جسده كله مرات متوالية، تصبب العرق. عبثاً حاولت أن اكلمه، كان يعاني من حالة ذهول مطلق. عندما استرد وعيه كنا قد اقتربنا من الفتحة.
قال بصوت واهن:
ـ يخيل لي أني سأرحل رحلة بعيدة!
ـ كلا.. أنت ما زلت في عز الشباب، من الأفضل أن تستمر على مراجعة الأطباء إلى أن يتم شفاؤك.
ـ الأطباء؟!.
ضحك ذات الضحكة الهستيرية، ثم مضى يقول:
ـ لا يهمني الموت مطلقاً بقدر ما يهمني تحقيق مشاريع كثيرة طالما فكرت فيها ليل نهار..
ـ أي مشاريع؟
ـ هوه؟ مشاريع غريبة بعيدة المنال. لكنّ اعتقد بان الآخرين سوف يعملون على تحقيقها حتى إذا متُّ.
تناول إحدى المجلات انكبّ يقرأ. كنا آنذاك قد وصلنا بيجي أخذنا نتأهب للاستراحة.

بعد يومين قرأت في الصحف خبرين: الأول شبه بلاغ مقتضب عن اعتقال شخص بتهمة سياسية، الثاني إعلان عن فقدان شاب مجنون. كانت الأوصاف تنطبق تماماً على صاحبي الذي افتقدته في منتصف الطريق.

جمعة كنجي

ـ مواليد1933، الموصل، ناحية بعشيقة.
ـ أنهى الدراسة الإعدادية- القسم الأدبي- سنة 1953
ـ خريج الدورة التربوية سنة 1954، عين معلما في مدارس سنجار والشيخان والموصل
ـ التحق بصفوف الأنصار عام 1963، بعد فصله من التعليم.
ـ بدا الكتابة في الصحافة العراقية عام 1954، حيث نشر العديد من المقالات في جريدة(فتى الموصل)، وبعدها في اتحاد الشعب وطريق الشعب والفكر الجديد.
ـ كان له اهتمام بالتراث ونشر العديد من المواضيع في مجلة التراث الشعبي.
ـ كتب القصة القصيرة، وله عدة مجاميع غير منشورة.
ـ نشر قصص للأطفال من خلال دار ثقافة الطفل عام1985.
ـ اعتقل بسبب نشاطه السياسي لأكثر من مرة في عهود مختلفة، وتعرضت عائلته للإبادة بعد اعتقالها في آب 1988، ومن ضمنها زوجته وأبناءه الثلاثة

ووالدته وشقيقته وأولاد أخيه ووالدتهم. ولا زال النظام مصراً على عدم كشف جريمته، رغم تدخل السيد ياكوب ميلر رئيس منظمة حقوق الإنسان العالمية وفان دير شتويل مقرر حقوق الإنسان في العراق.
- منع من النشر في السنوات الأخيرة قبل استدعائه الأخير من قبل جهاز الأمن، والذي تعرض بسببه إلى سكتة قلبية قاتلة بتاريخ 1986/10/18.

الفهرس

1- في دائرة البيطرة
2- الاحتجاج
3- كوخ على نهر الكومل
4- الثلوج
5- الخلاص
6- الطلقة الأخيرة
7- المقامة التكريتية
8- القلعة القديمة
9- القرية المهجورة
10- معركة أخرى خاسرة
11- آثار على الثلج
12- الحقيقة الضائعة
13- الطريق إلى الكرامة
14- ذلك المسافر!

ذلك المسافر
هذا ما بقي من جمعة كنجي
مجموعة من القصص كتبها ولم ينشرها.
فصدام العراق لم يترك له فرصة.

دفنه كبقية أسرته تطبيقا للمقولة الأزلية في العراق (لا حياة للأحرار في هذا الوطن!).
إن هذه القصص جزء من ذاكرة العراق، والعراق قطرة دم تسيل على كل الشفاه ونحن نكتفي بتوزيع المحارم البيضاء لنمسح دماء الشهداء عن أفواهنا ثم نبصق على كل الجهات إلا جهتنا نحن؟!!
الناشر